معاني حروف المباني عند المحدثين
دراسة في المنطلقات والمنهجيات

إعداد

مقبل بن علي الدعدي

أستاذ اللغويات المشارك بجامعة أم القرى

• **الملخص:**

في هـذا البحـث أرصـد محـاولات بعـض المحدثـين الوصـول إلى معـاني حـروف المبـاني، وأتتبـع الأدوات التـي استـعانوا بهـا مـن أجـل ذلـك، والنظـر في المنهجيـات التـي سـلوكها، والنظريـات المعرفيـة التـي اعتمدوهـا، وعلاقـة ذلـك بتصورهـم لنشـأة اللغـة وتطورهـا، ثـم مقارنـة تلـك المعـاني.

وقد جعلت البحث في مباحث ثلاثة:

المبحـث الأول: معـاني الحـروف: وفيـه جمعـت معـاني الحـروف الألفبائيـة عنـد المحدثـين.

المبحـث الثـاني: المنطلقـات: مجموعـة مـن التصـورات عـن اللغـة وعـن نشـأتها وعـن ظواهرهـا والأدلـة التـي بُنيـت عليهـا هـذه الأقـوال.

المبحـث الثالـث: المنهجيـات: فيـه حديـث عـن المنهجيـة التـي اتبعهـا الباحثـون في الكشـف عـن معـاني الحـروف.

في ختام البحث وصلت إلى مجموعة من النتائج، منها:

١- اختلـف الباحثـون في تحديـد معـاني الحـروف اختلافـاً كبـيراً، وذلـك يعـود لاختـلاف المنطلقـات التـي اعتمدوهـا، واختـلاف طرائـق الوصـول إلى تلـك المعـاني، وغموضهـا، وأعنـي بالغمـوض صعوبـة الاحتـكام إليهـا كالاحتـكام إلى مـا يوحيـه الصـوت مـن معنـى.

٢- اتفق أكثر الباحثين على علاقة تشكل الصوت وصفاته بالمعاني.

٣- وقع الباحثون في جملة من الإشكالات المنهجية.

الكلمات المفتاحية: حروف المباني - معانٍ - المحدثون.

*****

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

يُعنى هذا العمل بالدراسات التي حاولت إثبات أن للحروف معاني، والمقصود حروف المباني: الحروف الهجائية، فالحروف الألف والباء والتاء -عند هؤلاء الدارسين- لها معانٍ من قبل دخولها في التركيب، فكلمة كتب -مثلاً- معناها متشكل من مجموع معاني الكاف والتاء والباء، وما يتعلق بها من تأثر وتأثير كما سيأتي.

وسيحاول البحث رصد المعاني التي توصل أصحاب تلك الدراسات إليها، والأسس التي شيدوا نظرياتهم عليها، والحجج التي اعتمدوا عليها، والأصول التي انطلقوا منها، وسيتتبع البحث المتفق عليه -عندهم- والمختلف فيه، وما يتبعها من قضايا منهجية ومعرفية، فالبحث ينطلق من فرضية تبني هؤلاء الدارسين لمجموعة من التصورات والمنطلقات دعتهم لهذا القول ومحاولة تأكيده، وسيدرس تلك التصورات، وما قامت عليها من آراء لغوية تتعلق بمعاني الحروف.

كما أنه سيحاول إجابة الأسئلة التي أثارتها تلك الدراسات، ويعالج الإشكالات التي انبثقت منها، والملاحظات التي سجلها الباحث أثناء القراءة، من مثل:

١. ما المنطلقات اللغوية وغير اللغوية التي اعتمد عليها القائلون بهذا القول؟

٢. وما المنهجية التي اتبعها أصحاب تلك الدراسات في الوصول إلى معاني الحروف؟

٣. وما الأدلة التي حشدها الدارسون في إثبات تلك المعاني؟

٤. ما تصور أصحاب تلك الدراسات للغة من حيث: نشأتها، وتطورها، وتفرعها؟

٥. أكانت تلك الدراسات مجمعة على معاني الحروف أم بينها اختلاف؟

٦. هل لمعنى الحرف علاقة بمخرجه، وطريقة نطقه، وصفاته؟ وما علاقة رتبة الحرف في الكلمة بالمعنى؟

٧. وهل لتجاور الحروف أثر في طغيان معنى على آخر؟

٨. وبعد الدراسة والتحليل والنقد أنعد القول بمعانٍ لحروف المباني فرضيةً بحاجة لمزيد من التريث والاستدلال أم نظرية مكتملة الأركان يجب قبولها وتعميمها ودراستها؟

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى إجابة الأسئلة السابقة، والوصول إلى تقديم دراسة هذه القضية دراسة مبنية على الأسس العلمية، وعلى الأصول البحثية.

فرضية البحث:

يفترض البحث أن هذه الدراسات قد قامت على جملة من المنطلقات في الطريق لبناء هذا الرأي، واتبعت عدداً من المنهجيات في سبيل الوصول إلى المعاني، وسيحاول البحث مناقشتها، والبحث يفترض كذلك أن هذا القول لا يزال فرضية بحاجة إلى مزيد من الدعائم حتى يثبت: دعائم تتعلق بالمنطلقات، ودعائم تتعلق بالمنهجيات، وأخرى تتعلق بالتطبيقات على الواقع اللغوي، وتفسير الظواهر اللغوية كالاشتراك والترادف والتضاد والمجاز، وما يدخل في باب سنن العرب في كلامها، وحتى تقوم هذه الدعائم، فالقول أقرب إلى الفرضية الخاطئة.

حدود الدراسة:

اقتصر البحث على الدراسات الحديثة التي حاولت الوصول إلى معاني حروف المباني، واجتهدت في تقديم الأدلة في سبيل تأكيدها وتثبيتها، الذين قدموا دراسات متكاملة، وواضحة المعالم في هذه القضية، وأصحابها هم: عبدالله العلايلي، وعالم سبيط النيلي، ومحمد حسن جبل، وحسن عباس، وعاصم المصري، وإياد الحصني، ومحمود شاكر، وهؤلاء –حسب اطلاعي– أشهر من قدم رؤية متكاملة في هذه القضية، وقد استثنيت من هذا القيد الشيخ محمود شاكر، فلم يقدم دراسة متكاملة، ولكن ضممته للدراسة لمكانته العلمية، وقد ذكر أنه سيقدم دراسة في هذا الموضوع، ولكنه لم يفعل.

الدراسات السابقة:

لا يدعي البحث خلو المكتبة العربية من دراسات تتعلق بالموضوع، ويمكن تقسيم الدراسات إلى قسمين:

الأول: دراسات تبنت هذا القول كالباحثين الذين تناولتهم الدراسة، وآخرين ضربوا أمثلة على هذا القول دون تتبع لمعاني الحروف، ومن غير تقديم إطار نظري له كصبحي الصالح ومحمد المبارك.

الثاني: دراسات تحدثت عن القضية مع ذكر نماذج لها كدراسة: الحرف العربي بين جمال الصورة وإبداع الدلالة، د. حمدي سلطان حسن أحمد العدوي، بحث منشور في أبحاث ودراسات الندوة الرابعة عشرة: الحرف العربي، نشره مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، الطبعة: الأولى – ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م – الرياض.

و لكن لم تحاول تتبع هذه الرؤية عند المحدثين، ومناقشة منطلقاتهم، والكشف عن منهجياتهم التي اعتمدوها، والفرق بينهم في التنظير والتطبيق، وهذا ما تفردت به –حسب اطلاعي– هذا الدراسة.

منهج البحث:

يوظف البحث من أجل الوصول إلى أهدافه، وإجابة أسئلته، وتثبت فرضياته المنهج الوصفي: وصف الظاهرة وتحليلها، والمنهج المقارن «الموازنة» - ولا أقصد المنهج المتبع في دراسة اللغة، وإنما المقصود المنهج المتبع في دراسة القضايا؛ ليرصد الاتفاق والاختلاف بين الباحثين.

وقد جعلت البحث في مباحث ثلاثة:

المبحث الأول: معاني الحروف.

المبحث الثاني: المنطلقات.

المبحث الثالث: المنهجيات.

ثم خاتمة البحث.

والله أسأل التوفيق والسداد.

المبحث الأول: معاني الحروف[1]:

في هذا المبحث أسلط الضوء على معاني حروف المباني عند أولئك الباحثين، وأتبع ذكر المعاني بجملة من الملاحظات التي ظهرت لي بعد القراءة، وأثناء النظر والتحليل، وقد رتبتها ترتيبا ألفبائياً:

أ: **العلايلي**: الجوفية، وعاء للمعنى، الصفة تصير طبعا، **النيلي**: صورة للألف تجمع ما بين الزمان والمكان. **جبل**: تؤكد معنى ما تصحبه في التركيب، **عباس**: البروز والنتوء (بصرية)، **المصري**: تهمز وتحفز حركة الحرف ذهاباً وإياباً، **الحصني**: الشيء غير المحدد، **شاكر**: الصَّدى الصوتي الذي يراد به التنبيه والإشارة والنداءُ[2].

ب: **العلايلي**: بلوغ المعنى في الشيء بلوغاً تاماً، ويدل على القوام الصلب، **النيلي**: انبثاق الحركة من مكمنها بقوةٍ بعيداً عن المركز، **جبل**: تجمع رخو مع تلاصق ما، **عباس**: البعج والحفر، والقطع والشق، والتحطيم والتبديد، والمفاجأة والشِّدة، (ضعيف الشخصية، بصرية)، **المصري**: انبثاق يفتح المجال من مكمن الطاقة وإلحاح الحاجة، **الحصني**: البناء.

---

(١) ينظر :عبدالله العلايلي، مقدمة لدرس لغة العرب، دار الجديد، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م، ص٣١٣، عالم سبيط النيلي، اللغة الموحدة، نسخة إلكترونية، محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي لألفاظ القرآن الكريم، مكتبة الآداب، ج١، ص٢٥، حسن عباس، خصائص الحروف العربية ومعانيها، منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٨م، عاصم المصري، الأبجدية ودلالاتها: النظرية والتطبيق، دار كنعان، الطبعة الأولى ٢٠١٣م، إياد الحصني، معاني الأحرف العربية، الطبعة الأولى ٢٠١٢م، محمود شاكر، مقالات: علم معاني أصوات الحروف، جمهرة مقالات الأستاذ محمود شاكر، جمع عادل جمال، مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، ٢٠١٣م، ج٢، ص٧٠٨-٧٣٤. التي لم أذكر أرقام الصفحات فيها هي منثورة في الكتب المذكورة، ولم أحل لكل حرف على حدة؛ لأن ذلك يثقل البحث بكثرة الإحالات.

(٢) أخرنا محمود شاكر في الترتيب؛ لأنه لم يستوعب الحروف كلها، ولم يقدم دراسة نظرية واسعه، فما قدمه في القضية المدروسة مقالات ثلاث، وقد وعد فيها باستيعاب المعاني كلها والحديث عنها في كتاب سر العربية ولكن لم يفعل. انظر المقالات، ج٢/ ص٧٢٥.

ت: **العلايلي**: الاضطراب في الطبيعة أو الملابس للطبيعة في غير ما يكون شديدا، **النيلي**: اجتذاب الحركة لأمثالها لتشكيل حركاتٍ مترتبةٍ معها، **جبل**: ضغط بدقة وحدة يتأتى منه معنى الامتساك الضعيف ومعنى القطع. **عباس**: يوحى بملمس بين الطراوة والليونة (ضعيف الشخصية لمسي)، **المصري**: اجتذاب الحركات وتكاثفها لبناء قوة جديدة، **الحصني**: التأنيث.

ث: **العلايلي**: التعلق بالشيء تعلقاً له علامته الظاهرة، في الحس أو المعنى، **جبل**: كثافة أو غلظ مع تفشي. **عباس**: الرقة والليونة والملمس الدافئ الوثير (قوي الشخصية لمسي)، **المصري**: تكاثر كمي بثبات وتريث متتابع. **الحصني**: التثنية - التكاثر.

ج: **العلايلي**: يدل على العِظم مطلقاً، **جبل**: تجمع هش مع حدة ما، **عباس**: الفخامة والعظم والامتلاء (قوية الشخصية، بصرية)، **المصري**: دمج وجمع لما تناثر وتفاقم، **الحصني**: الجمع والجمود، شاكر: دالةٌ على حكاية صوت.

ح: **العلايلي**: التماسك البالغ وبالأخص في الخفيات، ويدل على المائية، **النيلي**: تعاظم الحركة. **جبل**: احتكاك بعرض وجفاف، عباس: الرقة والشفافية والعذوبة (ضعيف الشخصية، شعوري) **المصري**: نماء متعاظم من داخل الحركة، الحصني: الحب.

خ: **العلايلي**: المطاوعة والانتشار، وعلى التلاشي مطلقا، **جبل**: تخلخل مع جفاف، **عباس**: للتعبير عن معاني الخسة والتفاهة والبشاعة والعيوب النفسية والجسدية، (شخصية فذة، شعوري)، **المصري**: خروج مبطن لإخماد الحركة وكبت جماحها في مكانها، الحصني: الكراهية، شاكر: حرف حلقي جافّ غليظٌ يكون معهُ الاستعلاء والترفع والاستبشاع والاشمئزاز.

د: **العلايلي**: التصلب، وعلى التغير المتوزِّع، **النيلي**: اندفاع مقصود، **جبل**: احتباس بضغط وامتداد. **عباس**: للتعبير عن معاني الخسة والتفاهة والبشاعة

والعيوب النفسية والجسدية، (شخصية فذة، شعوري). **المصري**: اندفاع قصدي الدلالة بالحركة لأبعد مدى، **الحصني**: الحد والحدود.

ذ: **العلايلي**: التفرد، **جبل**: نفاذ ثخين ذو رخاوة ما وغلظ، **عباس**: توتر صوت، وخشونة ملمس، وشدة ظهور، (قوي الشخصية لمسي)، **المصري**: تذليل مرور وتواصل الحركة حسياً بالتحامها بالأصل، **الحصني**: البروز.

ر: **العلايلي**: الملكة، ويدل على شيوع الوصف، **النيلي**: تكرّر الحركة بترتيب معيّن، **جبل**: استرسال مع تماسك ما، **عباس**: التحرك والتكرار والترجيع (من أقوى الحروف شخصية ذوقي)، **المصري**: تكرار للحركة بشكل منظم يستبطن المحاذير، **الحصني**: الأرض والتكرار.

ز: **العلايلي**: التقلع القوي، **جبل**: اكتناز وازدحام، **عباس**: التعبير عن الأصوات المماثلة في الطبيعة (قوي الشخصية، سمعي)، **المصري**: إبراز تكرار الحركة ماديا، **الحصني**: الذال والزاي: البروز.

س: **العلايلي**: السعة والبسطة من غير تخصيص، **جبل**: امتداد بدقة وحدة، **عباس**: يوحي بالحركة والطلب والبسط، في أوائل الألفاظ، في أواخرها يوحي بالخفاء والاستقرار والضعف والرقة (قوي الشخصية بصري) **المصري**: هيمنة وبسط نفوذ فوقي متعال، **الحصني**: الاستقامة والإحساس السوي.

ش: **العلايلي**: التفشي بغير نظام، **جبل**: تفشي أو انتشار مع دقة، **عباس**: البعثرة والانتشار والتخليط، والتعبير عن التوافه (قوي الشخصية، بصري)، **المصري**: تشعب وانتشار للحركة من أرومة يضمر التضليل، **الحصني**: الانتشار. **شاكر**: تحمل بطبيعتها صوتَها المتفشّي المستطيلَ المتلين.

ص: **العلايلي**: المعالجة الشديدة، **جبل**: نفاذ بغلظ وقوة وخلوص، **عباس**: نقاء الصوت صفاء الصورة وذكاء المعنى، وشدة وقوة وفاعلية (قوي الشخصية، شعوري)، **المصري**: ترابط وتراص وتفاعل في الحركة ودلالتها، **الحصني**: الصلابة.

ض: العلايلي: الغلبة تحت الثقل، جبل: ضغط بكثافة وغلظ، عباس: مشاعر الشهامة والمروءة والشمم (قوي الشخصية، شعوري)، المصري: الالتزام بعدم الانحراف أو الميل عن القصد، الحصني: الضد أو النقيض.

ط: العلايلي: الملكة في الصفة، وعلى الالتواء والانكسار، جبل: ضغط باتساع واستغلاظ، عباس: الضخامة بين التكوّر والفلطحة، والطراوة والمرونة (قوي الشخصية، بصري)، المصري: تضخم احتوائي واجتذاب داخلي للحركة، الحصني: الزيادة والضخامة والتفلطح.

ظ: العلايلي: التمكن في الغؤور، جبل: نفاذ بغلظ أو حدة مع كثافة، عباس: وهو يوحي بالفخامة والنضارة والأناقة والظهور، وبشيء من الشدة والقساوة (شخصية فذة، بصري)، المصري: تعاظم ظهور الحركة، الحصني: الظهور.

ع: العلايلي: الخلو الباطن أو الخلو مطلقا، النيلي: حركة جوهرية داخلية نهايتها اتضاح الحركة. جبل: التحام على رقة مع حدة ما، عباس: يوحي بالفعالية والإشراق والظهور والسمو (قوي الشخصية، شعوري). المصري: معاينة داخلية وخارجية للمبهم في الحركة ووجهتها، الحصني: الفعل والعمل المنتج.

غ: العلايلي: كمال المعنى في الشيء، جبل: تخلخل مع شيء من رخاوة، عباس: الغموض والامّحاء والعدم، (قوي الشخصية، بصري)، المصري: تمويه ظهور الحركة وبيان مقصدها بإخفاء معالمها، الحصني: الغيب والغموض.

ف: العلايلي: لازم المعنى أي على الوضع في المعنى الكنائي، النيلي: تفرّق الحركة إلى ما يفي كافة الاتجاهات. جبل: طرد وإبعاد، عباس: البعثرة والتشتت (شخصية قوية نسبيا بصري)، المصري: فصل وتفريق للتمييز والبت في وجهة الحركة، الحصني: حرف الفراغ والتفريغ.

ق: **العلايلي**: المفاجأة التي تحدث صوتاً، **جبل**: تعقد واشتداد في العمق، **عباس**: الانفجار والقوة والقساوة والصلابة والشدة (ضعيف الشخصية، سمعي)، **المصري**: قوة فصل لبيان وتقفي أثر الحركة، **الحصني**: القوة.

ك: **العلايلي**: الشيء ينتج عن الشيء في احتكام، **النيلي**: تكتّلُ الحركة مع من يُشبُهها، **جبل**: ضغط غؤري دقيق يؤدي إلى امتساك أو قطع، **عباس**: الشدة والضخامة أو الاحتكاك والحرارة (على حسب نطقه) (متوسط الشخصية لمسي)، **المصري**: تكتل ما تآلف وتوافق في إطار ومحتوى، **الحصني**: الكبر- التركيب، **شاكر**: الكاف تمثل في النطق صوت شيئين لينين بَينَ بَينَ يزحمُ أحدهما الآخر زَحماً شديداً.

ل: **العلايلي**: الانطباع بالشيء بعد تكلُّفه، **النيلي**: تلاحم ما يمكن أن يكوّن حركةً واحدةً. **جبل**: تعلق أو امتداد مع استقلال أو تميز، **عباس**: يوحي بمزيج من الليونة والمرونة والتماسك والالتصاق (شخصية جيدة، ذوقي)، **المصري**: تلاحم وتوصيل لنسج حركة جديدة، **الحصني**: الاتصال، **شاكر**: تمثيل للإلحاح والتردد والانتشار، ومعاناة للتحفز الذي يأتي بالصوت في اندفاعهِ.

م: **العلايلي**: الانجماع، **النيلي**: تكامل الحركة بإتمام ما ينقُصها، **جبل**: امتساك واستواء ظاهري، **عباس**: الليونة والمرونة والتماسك مع شيء من الحرارة. (معدوم الشخصية لمسي)، **المصري**: تكوين مستمر لحركة مستقرة مكاناً وزماناً، **الحصني**: السماء.

ن: **العلايلي**: البطون في الشيء، أو على تمكن المعنى تمكناً تظهر أغراضه، **النيلي**: إنشاء مستمر. **جبل**: امتداد لطيف في الباطن أو منه، **عباس**: إذا لفظ مخفَّفاً مرقَّقاً أوحى بالأناقة والرقة والاستكانة، وإذا لفظ مشدداً بعض الشيء. أوحى بالانبثاق والخروج من الأشياء. (شخصية فذة، شعوري)، **المصري**: تكوين مستمر لحركة مستقرة مكاناً وزماناً، **الحصني**: الصغر والتصغير، **شاكر**: يدور أكثر ما يدور في الألفاظ ذوات المعاني النفسية الصافيةُ التي تذوب فيها آلام النفس وأحزانها وأحلامها وأفكارها التي لا تتكلم إلَّا لمحاً وإشارة وتلويحاً.

هـ: **العلايلي**: التلاشي، جبل: فراغ وإفراغ، عباس: الحالات النفسية، والتشوهات الجسدية وما يستتبع ذلك من حالات الضعة والرداءة (قوي الشخصية، شعوري)، **المصري**: انتقال محمول غير مستقر فإذا استقر جذب، **الحصني**: الحركة والتنبيه، شاكر: أكثر موردها على التنبيه والدلالة والإشارة.

و: **العلايلي**: الانفعال المؤثر في الظواهر، **النيلي**: يمثل حيز المكان، **جبل**: اشتمال، **عباس**: البعد إلى الأمام. (بصرية) **المصري**: تموضع مكاني يحدد حيز الحركة، **الحصني**: الألف- الياء- الواو حروف المد: مد الصفات التي تصفها.

ي: **العلايلي**: الانفعال المؤثر في البواطن، **النيلي**: محور الزمان، **جبل**: اتصال، **عباس**: الاتجاه إلى الأسفل وتختلف إلى حدٍّ ما بحسب مواقعه من اللفظة. (بصرية)، **المصري**: ملازمة الحركة في البعد الزمني المستمر، **الحصني**: الألف -الياء- الواو حروف المد: مد الصفات التي تصفها.

ا: **النيلي**: يكوّن الحركات في صورة الأصوات له ثلاثة مظاهر المكان؛ ويمثله (الواو)، و(الزمان) ويمثله الياء، والألف المهموز تجمع ما بين الزمان والمكان، **عباس**: إضفاء خاصية الامتداد في المكان أو الزمان (بصرية). **المصري**: تأليف إنشائي وجودي من تعامد بين حركتي الزمان والمكان، **الحصني**: الألف- الياء- الواو حروف المد: مد الصفات التي تصفها.

هذه معاني الحروف التي ذكرها هؤلاء الدارسون، ويسجل البحث بعد النظر في تلك المعاني ملاحظات عدة منها:

أولاً: لعل أول ما يسجله البحث من ملحوظات هو عدم الكشف عن معاني الحروف كلها عند كل من: محمود شاكر، وعالم سبيط النيلي، وقد ضمها البحث في الدراسة؛ لأن النيلي قدم دراسة نظرية تتبنى القول بدلالة حروف المباني على المعاني، وهي دراسة ضخمة تستحق الدرس والنظر والمراجعة، هذا من جهة ومن جهة ثانية كان النيلي أحد أهم المصادر التي

أفاد منها عاصم المصري في كتابه الأبجدية ودلالاتها، وأما محمود شاكر فلمكانته في الثقافة العربية المعاصرة يحسن أن ننظر في رأيه في قضية البحث، ونتلمس وجهة نظره.

ثانياً: غموض بعض المعاني، وصعوبة إدراك مرادها، وبالأخص المعاني التي ذكرها النيلي والمصري، كدلالة حرف العين عند النيلي على «حركة جوهرية داخلية نهايتها اتضاح الحركة»، ودلالته عند المصري على «معاينة داخلية وخارجية للمبهم في الحركة ووجهتها».

ثالثاً: دلالة الحرف عند بعضهم على أكثر من معنى، كدلالة الباء عند حسن عباس على البعج والحفر، والقطع والشق، والتحطيم والتبديد، والمفاجأة والشِّدة، وإيحاء حرف الظاء عنده بالفخامة والنضارة والأناقة والظهور، وبشيء من الشدة والقساوة.

رابعاً: وصف حسن عباس الحروف بوصفين غير دلالتهما، وهما:

الأول: الحكم على الحروف بقوة الشخصية، أو ضعفها، أو التوسط بين القوة والضعف، والقوية عنده هي التي حافظت على دلالتها وإيحاءاتها عند مجاورتها للحروف الأخرى في الكلمة وأثرت فيها، والضعيفة عكسها[1].

الآخر: تصنيف الحروف وفق الحواس، فـ«أصوات الحروف العربية لا بد أن توحي بمختلف الأحاسيس الحسية والمشاعر الإنسانية»[2]، وهي على النحو التالي:

(١) لم يعرف عباس الحرف القوي والحرف الضعيف، ولكن هذا مبثوث في كتابه، فمثلا يقول: "على الرغم من رقة صوت (الثاء) ودمائته، فقد أثرت في معاني المصادر التي تنتهي بها بنسبة بلغت (٧٨٪) كما حافظت على طبقتها اللمسية البصرية، مما أجاز لي تصنيفها في عداد الحروف القوية الشخصية"ص٦٣، ويقول عن حرف الحاء:» فإنه لم يؤثر في معاني المصادر التي شارك في تراكيبها إلا في نسب على التوالي (٢٣- ١٩- ١٦٪) هذه النسب تؤهل حرف الحاء لزعامة الحروف الضعيفة الشخصية". ص١٣٠.

(٢) خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص٤٩.

أ- الحروف اللمسية: (ت. ث. ذ. د. ك.م)، ب- الذوقية: (ر.ل). ج- الشمية: .....، د- البصرية: (الألف المهموزة واللينة، ب.ج. س. ش. ط.ظ. غ.ف. و. ى)، هـ-السمعية: (ز.ق)، و- الشعورية غير الحلقية: (ص. ض. ن)، ز- الشعورية الحلقية: (خ. ح. هـ. ع).

يلاحظ في هذا التصنيف أنّ حاسة الشم لم تختص بأي حرف لتعبر به عن أحاسيسها، إلّا أن هناك كثيراً من الحروف التي في أصواتها بعض الأحاسيس الشمية»[1]، وبذلك تفرد عباس عن غيره ممن بحثوا دلالة الحروف الألفبائية، وهو يؤكد «صعوبة استخلاص الخصائص الحسية أو الشعورية من أصوات الحروف. لذلك من المستحسن أن يردّد القارئ صوت الحرف موضوع الدراسة بشيء من التفخيم، المرة بعد المرة، وأن يتأمل صداه في نفسه وحبذا لو يسجل ذلك على شريط. ومن المفيد أن أنبه الآن أنه قد يكون لصوت الحرف الواحد ايحاءات حسية وشعورية مختلفة، نظراً لتعقد عملية النطق به واعتماد تشكل صوته على مساحة واسعة وفراغات متعددة في جهاز النطق. إلا أنني قد صنّفت الحروف تبعاً للخصائص الحسية أو الشعورية الغالبة فيها، أو وفقا لطبيعتها الصوتية الخاصة، أو حسب طريقة النطق بها، مشيراً إلى ذلك حيناً وساكتاً عنه حيناً آخر»[2]، ومع تأكيده صعوبة هذا التصنيف، وتعقيد استخلاص الإيحاءات الشعورية للحرف إلا أنه يبقى تقسيماً غريباً، وبعيداً عن الواقع اللغوي، وانظر إلى أول حرف يشرح فيه ذاك الإيحاء الشعوري، وهو حرف التاء الذي جعله مع الثاء والذال، والدال، والكاف، والميم من الحروف اللمسية، يقول: «صنفت حرف (التاء) في زمرة الحروف اللمسية؛ لأن صوته يوحي فعلاً بإحساس لمسي مزيج من الطراوة والليونة، ولأنه لا يوحي بأي إحساس آخر أو بأية

(١) السابق، ص٥٠.

(٢) السابق، ص٤٩.

مشاعر إنسانية»[1]. ومع غموض ما ذكر وغرابته دعونا نستمر معه لنرى كيفية استدلاله على الحكم، فبعد الرجوع إلى المعاجم لينظر في مدى تمسك الحرف بهرميته اللمسية كما يقول[2]، ماذا وجد؟

- بالرجوع إلى المعجم الوسيط... عثرت على مئة مصدر جذر تبدأ بالتاء مما هو غير مولد أو معرب أو دخيل أو محدث أو عامي.... كان منها ثمانية عشر مصدراً تدل معانيها على الرقة والضعف والتفاهة، بما يحاكي الرقة والضعف في صوت التاء، وكان منها ستة وعشرون مصدراً تدل معانيها على الشدة والغلظة والقساوة والقوّة بما يتجافى مع موحيات الرقة والضعف في صوت التاء، وكان منها ثلاثة مصادر للشميات المستكرهة.

- وكان منها خمسة مصادر للبصريات، مما يدل على الامتلاء والارتفاع، وكان خمسة للأصوات، وكان منها خمسة مصادر للمشاعر الإنسانية، ثم النتيجة بعد ذلك القطع بأن حرف التاء ضعيف الشخصية. وهذا ما هيأ الفرص للحروف الأخرى، كيما تتسلط بخصائصها الصوتية على معاني المصادر التي تبدأ بها.

هكذا إذن فبعد أن يقرر حسن عباس المعنى المبني على الإحساس والشعور والإيحاء ينطلق إلى المعجم، فإذا وجد المعاني تتوافق وإحساسه حكم على الحرف بالقوة، وإن لم يجد حكم عليه بالضعف، وكان الأنسب منهجياً، والأقرب في البناء الصحيح أن يعيد النظر في المعنى بما يتوافق واستعمالاته.

خامساً: ومن الملاحظات التي تتعلق بحسن عباس أنه جعل لبعض الحروف أكثر من معنى باعتبار نطق الحرف، فمثلا حرف الكاف يدل على الشدة والضخامة، أو الاحتكاك

(١) السابق، ص٥٥.

(٢) السابق، ص٥٥ وما بعدها.بتصرف.

والحرارة (على حسب نطقه)، وقد مر ذلك عند الحديث عن معنى حرف الكاف، وعن النون يقول: «إذا لفظ مخفَّفاً مرقَّقاً أوحى بالأناقة والرقة والاستكانة، وإذا لفظ مشدداً بعض الشيء. أوحى بالانبثاق والخروج من الأشياء، بل جعل المعاني التي تدل عليها الحروف حَكَماً في نطق الحروف المختلف في نطقها»، يقول عن نطق حرف الجيم: ونحن لو رجعنا من عالم التخمين والفرضيات إلى واقع الإيحاءات الصوتية لحرف الجيم بمعرض تأثيره في معاني الألفاظ التي يتصدرها، إذن لعرفنا كيف نطق به مبدعوه الأوائل، معطشاً شامياً أو غير معطش قاهرياً. ولا عبرة بما يلفظ في (الساميات)؛ لأن العربية هي الأصل. فإذا وجدناهم قد استخدموه للتعبير عن المعاني التي يوحي بها صوت الجيم معطشاً، فإنهم لا شك قد لفظوه معطشاً طوال مرحلة إبداع تلك الألفاظ، وإلا فيكونون قد لفظوه قاهرياً غير معطش. وذلك: (حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث)[1].

وهو قول غريب، يبدو فيه أنّ الباحث لم يرجع من عالم التخمين، والفرضيات، والإيحاءات!

سادساً: من الملاحظات كذلك أننا نجد بعض المعاني نسبت لأكثر من حرف عند الدارسين، من ذلك:

- **التماسك**: فقد وجدنا هذا المعنى في حرف الحاء، والراء، واللام، والميم، والتاء:

ح: التماسك البالغ وبالأخص في الخفيات، ويدل على المائية. العلايلي، ر: استرتسال مع تماسك ما. جبل

ل: يوحي بمزيج من الليونة والمرونة والتماسك والالتصاق (شخصية جيدة، ذوقي) عباس، م: الليونة والمرونة والتماسك مع شيء من الحرارة. (معدوم الشخصية لمسي) عباس، ت: ضغط بدقة وحدة يتأتى منه معنى الامتساك الضعيف ومعنى القطع. جبل

(١) السابق، ص٨٨

- الانبثاق والاندفاع:

ب: انبثاق الحركة من مكمنها بقوة بعيداً عن المركز. النيلي، ن: إذا لفظ مخفَّفاً مرقَّقاً أوحى بالأناقة والرقة والاستكانة، وإذا لفظ مشدداً بعض الشيء. أوحى بالانبثاق والخروج من الأشياء. (شخصية فذة، شعوري) عباس، ق: الانفجار والقوة والقساوة والصلابة والشدة (ضعيف الشخصية، سمعي) عباس، د: اندفاع قصدي الدلالة بالحركة لأبعد مدى. مصري.

نعم هناك اختلاف في تفاصيل المعنى وملابساته، لكن ما سر هذا الاشتراك في المعنى العام؟

بل نجد ذلك أحياناً عند باحث واحد، فانظر إلى الامتداد عند محمد حسن جبل الذي دل عليه أكثر من حرف: س: امتداد بدقة وحدة، د: احتباس بضغط وامتداد، ل: تعلق أو امتداد مع استقلال أو تميز، ن: امتداد لطيف في الباطن أو منه.

وكذلك الليونة عند حسن عباس:

ت: يوحي بملمس بين الطراوة والليونة (ضعيف الشخصية لمسي)، ث: الرقة والليونة والملمس الدافئ الوثير (قوي الشخصية لمسي)، ط: الضخامة بين التكوّر والفلطحة، والطراوة والمرونة (قوي الشخصية، بصري)

ل: يوحي بمزيج من الليونة والمرونة والتماسك والالتصاق (شخصية جيدة، ذوقي)، م: الليونة والمرونة والتماسك مع شيء من الحرارة. (معدوم الشخصية لمسي)

وهي بحاجة إلى تفسير كيف يشترك حرفان في معنى من المعاني؟ وما الخصوصية التي تفرد بها كل حرف؟

فهذه بعض الملحوظات الخاصة بمناقشة تلك المعاني التي ذكرها الباحثون، وهي ملحوظات وأسئلة أثارتها تلك الأفكار، وما تشمله من معانٍ.

هذا وإنّ الناظر في معاني الحروف سيجد تقارباً في تحديد معنى بعض الحروف، وذلك كحرف السين، والشين، ولكن سيلاحظ أنّ الاختلاف أكثر من الاتفاق والتقارب، ويمكن إعادة النظر في معاني الحروف للتأكد من ذلك، فانظر مثلا لمعاني الهمزة، والحاء، والخاء، والدال وغيرها من الحروف، وهذا يقودنا إلى التساؤل المشروع لماذا هذا الاختلاف؟ وما أسبابه؟

ولمحاولة تلمس الأسباب، والكشف عنها ذهب البحث إلى ما قدمه الدارسون من تنظير، وذلك للنظر في المنطلقات التي اعتمدوا عليها، والتصورات التي انطلقوا منها علّها تجيب تلك الأسئلة وتفسر ذاك الاختلاف.

المبحث الثاني: المنطلقات:

أقصد بالمنطلقات هنا مجموعة من التصورات عن اللغة وعن نشأتها وعن ظواهرها، والأدلة التي بُنيت عليها هذه الأقوال، ولا يلزم اشتراكهم في المنطلقات، بل الاختلاف وارد بعد أن أدركنا خلافهم في المعاني.

أولاً: نشأة اللغة وتطورها:

١- نشأة اللغة:

أما عبدالله العلايلي فقد تحدث عن لغة ما أسماه بالإنسان الفطري، وهو الدور الأول من أدوار اللغة، وما اللغة في هذا العهد إلا مجموعة من الأصوات غير المتشكلة المتأثرة بأصوات الطبيعة، والمعبرة عن الانفعالات كالأنين[١]، ويرى العلايلي أن هذه اللغة هي «لغة الإنسان الأول التي هي أم اللغات، والتي لم تزل سراً مغلقاً في مباحث علم اللغة المقارن»[٢].

هذا وقد رفض العلايلي قبل ذلك الدخول في الخلاف المشهور في نشأة اللغة أتوقيفية أم اصطلاحية، ورأى أنه خلاف لا ثمرة لغوية منه، يقول: «لست أعرض هنا إلى شيء من الخلاف في أن اللغات توقيف أو خلق في محل النطق، أو مواضعة لاعتقادي بأن هذا الاختلاف في أساسه وجوهره، لا يراد منه اللغة، وإنما غايته كلامية بحتة»[٣].

نعم العلايلي لم يدخل في جدل نشأة اللغة، ولم يتتبع الأقوال، ويسبر الأدلة ويفتش عن الأصح، ويرجح قولاً على آخر، لكنّ قوله بأن لغة الإنسان الأول محاكاة لأصوات الطبيعية، ومعبرة عن الانفعالات الضرورية للإنسان الأول سيجعله من المستبعدين توقيفية اللغة.

(١) مقدمة لدرس لغة العرب، ص١٩٥.
(٢) السابق، ص١٩٦.
(٣) السابق، ص١٨٩.

وأما النيلي فيرى ضرورة الرجوع إلى لغة قياسية، ولا يهم معرفة مصدر هذه اللغة القياسية، والمهم أنها لغة صحيحة ندرك ذلك بواسطة نظامها، يقول: «لا بدّ من (لغة قياسية) ندرك مسبقاً وعلى وجه اليقين أنها لغة صحيحة. وفي هذه الحالة ندرك صحّتها من خلال نظامها الداخلي فقط. وقد تكون تلك اللغة لغة قوم معيّنين أو فئةٍ معينةٍ أو شخص حكيم واحدٍ فهذا لا يهم، المهم أنها لغةٌ تستخدم الأصوات نفسها التي ننطقها»[1]. ثم تحدث النيلي عن أنّه لا يمكن تصور لغة قياسية حقيقية تمتلكها جماعة متخلفة إلا وفق التصور التالي: «وهو أن امتلاك هذه الجماعة المتخلّفة لهذه اللغة شيءٌ وإدراكها لها هو شيءٌ آخرٌ، بل قد تكون لغتها شيئاً ولسانها شيئاً آخر. وفي هذه الحالة فإنّ هذه اللغة الصحيحة والقياسية لن تكون قطعاً هي اللغة التي تتحدّث بها هذه المجموعة المتخلّفة، وإنما هي لغة (كتاب) تمتلكه لفردٍ قديم وحكيم جداً وهي قد لا تعي مطلقاً ما فيه من نظام لغويٍّ محكم فهو بلسانها ولكنه ليس بلغتها. وأنا شخصياً أعتقد بأن الأمر على هذا النحو؛ لأن مثل هذا الكتاب قد وقع قديماً في يديَّ وكان هو المسبب في ظهور فكرة اللغة الموحدة وهو الكاشف عن المعاني الحركية للأصوات. وهو كتابٌ يتميّز بنظام لغويٍّ دقيقٍ للمفردات والتراكيب، ودقّته تفوق الدقّة التي يظهر بها النظام الكوني في الكبر أو النظام الذرّي في اللطف والصغر وعلى العلماء خاصةً بذل الجهد للعثور على تلك اللغة في هذا الكتاب أو في غيره فتلك هي اللغة القياسية بالفعل»[2].

والحقيقة أنّ كلام النيلي يكتنفه شيء من الغموض، فما الكتاب الذي وقع بين يديه، وما تلك اللغة التي صُنف بها، ولكنه ذكر أن هذا الكتاب كان هو المسبب لظهور نظريته اللغة الموحدة، وفي موضع آخر يقول: «خلال البحث في أحد النصوص ذات القيمة العليا في اللغة تمّ اكتشاف روابط لفظية غريبة. هذا الكشف استدعى البحث عن صحة الترادف في هذا النصّ، وبعدما حصل

(١) اللغة الموحدة، ص١١٢.

(٢) السابق، ص١٢٥.

شكٌّ في وجود الترادف فيه فقد تمّ افتراض وجود نظام معيّن يتمّ بموجبه تغيّر المعاني للعبارات من خلال الاقتران مع ثبات معنى اللفظ في ذلك النصّ»[1].

يقول فرقان محمد تقي الوائلي جامع كتب النيلي ومسوداته ومخرجها: يقصد النيلي بالنصوص العليا القرآن الكريم، وقد ذكر سبب عدم تصريح النيلي بالقرآن، يقول: «ويلمّح المؤلف إليه بهذا الوصف دون التصريح؛ لأنه أخذ في اعتباره مصالح الترجمة كما أشار في الجزء الأول»[2]. وقد ذكر بعد ذلك أن النص ذا القيمة العليا نص قياسي، يقول: «الحروف واستعمال النصّ ذي القيمة العليا أعلاه باعتباره نصّاً قياسياً»[3].

فهل الكتاب الذي وقع بين يديه، وكان سبباً في ظهور نظريته هو النص ذو القيمة العليا الذي ينص مراجع كتب النيلي على أنه القرآن؟ ربما، ولكن لماذا يعبر عنه بهذه الصورة، وكأنه كتاب وقع في يديه برهة من الزمن ليست بالطويلة، ولا يستطيع استحضار عنوانه!

وأما عن تساؤل: أنشأت اللغات متجاورة أم تفرعت من لغة واحدة فإنه يرى أن صيغة السؤال خاطئة، والصواب: «هو السؤال عما إذا كان هناك لسانٌ واحدٌ أو ألسنٌ متعدّدة نشأت سوية؟

وإذا كانت الصياغة على هذا النحو فمن غير المنطقي القول: إن هناك ألسناً متعدّدةً إلّا إذا اعتقدنا أن تأهيل الأرض بمناطقٍ متباعدةٍ حدث قبل تكوّن أيّ لسانٍ، وهو اعتقادٌ غير منطقي... إذاً فمن المنطقي القول أنّه كان في الأصل لسانٌ واحدٌ انبثقت عنه ألسنٌ متعددةٌ أملتها التغيرات الغير مسؤولة في النظام الصوتي»[4].

(١) السابق، ص٥١٤.
(٢) السابق، حاشية ص ٥١٥.
(٣) السابق، ص٥١٦.
(٤) السابق، ص٣٢٠.

فالنيلي إذن يفرق بين اللغة واللسان، فاللغة في نظريته: «(نظام الكلام) وهو نظامٌ واحدٌ ...واللسان هو وحده المختلف لأنه ناتجٌ عرضيٌّ للتغيّرات الطارئة على هذا النظام ترابطاً وأصواتاً وتراكيباً ونبراتٍ. فالألسن طارئةٌ على اللغة بمعناها الواسع، ولذلك فمن المنطقي بل من الواجب الاعتقاد أن هناك لساناً واحداً يطابق النظام الشامل للغة بمعناها الواسع»[1].

وبناء على تلك التفرقة بين اللغة واللسان، فالقرآن الكريم -عنده- قد جاء بجزء من اللسان العربي، ولم يأت باللغة العربية، يقول: «أمّا اللغة العربية فهي جزء من اللسان طاله التخريب والاعتباطية شأنه شأن اللغات الأخرى. والقرآن قد تحدّث لنا بجزء من اللسان بأنظمة تطابق أصول وجذور الحركة في اللسان، مخالفاً لأنظمة اللغة، فهو نظامٌ لغويٌّ مستقلٌّ بنفسه لا علاقة له بنظام اللغة المستعملة»[2].

وبعد ذلك يرى أن اللسان العربي قد حافظ على النظام الصوتي، وما تزال الأصول الحركية للأصوات باقية فيه بشكل أفضل من غيره من الألسن، وكذلك يرى أن القرآن الكريم هو المطابق الوحيد لهذا اللسان، يقول: «شخصياً أعتقد أن (اللسان العربي) هو لسانٌ قد حافظ للآن على النظام الصوتي المتكامل لآلة النطق وأبقى الأصول الحركية للأصوات على حال أفضل (بما لا يقاس) من بقية الألسن. وبالطبع فإنّ هذا لا يعني أنّ النظام اللغوي العربي يفي بمتطلبات هذا اللسان، ولكنه كان رغم مساوئه الكثيرة (وعاء) أبقى لنا شيئاً كثيراً من الخصائص المميزة لهذا اللسان. أما القرآن الكريم فهو النسق الوحيد الملائم والمطابق لخصائص اللسان العربي. إذاً فاللسان العربي الموجود لدينا الآن ليس في الأدب العربي أو انساق اللغة، ولكنّه موجود فقط بصورته الصحيحة في القرآن الكريم من حيث

(١) السابق، ص١٩٣.

(٢) السابق، ص٣١٦.

هو نظام مطابق للنظام الصوتي وللنظام اللاحق به (أي تركيب الوحدات البنائية) التي تتألف من النظام الصوتي عناصر وتراكيب[1].

الغريب أنّ النيلي بدأ يذكر القرآن الكريم، وقد كان يتحاشى ذكره في الكتاب نفسه من أجل الترجمة كما يقول المراجع فرقان!

وقد تكلم حسن عباس عن نظريات نشأة اللغة، وذكر أنها تؤوب إلى فئات أربع:

النظرية التوقيفية، النظرية الاصطلاحية، والنظرية التوفيقية التي توفق بين الاصطلاحية والتوقيفية، والنظرية الفطرية التي تقول: إن أصل اللغة اقتباس من الطبيعة والتقليد، وقد أردف حسن عباس كل قول بقائليه من التراث اللغوي العربي والدرس اللغوي الغربي[2]، وبعد ذلك حاول تحديد موقع دراسته في التصورات النظرية السابقة لنشأة اللغة، إذ طرح التساؤل الآتي: ما موقع دراساتي من هذه الفئات الأربع؟ ثم أجاب بقوله:

١- **النظرية التوقيفية**: إن اللغة بحكم (كونيتها) المناخية، فإن نشأتها فيما أرى تتماس مع هذه النظرية.

٢- **النظرية التوفيقية**: هي مزيج من التوقيفي والاصطلاحي. وهي تتماس أيضاً مع محصلة دراساتي كما سيأتي في الفقرة التالية:

٣- **النظرية الاصطلاحية**: إن اللغة العربية بحكم عراقتها التاريخية كان من المحال على أبنائها أن يلتزموا في إبداع جميع مفرداتها وقواعد صرفها ونحوها بالخصائص الفطرية للحروف العربية إذ لم يكن ثمة من رقيب عليهم في ذلك إلا الذوق الفطري السليم الذي كان يتمتع به هزاجها وفصحاؤها وشعراؤها. وكان من المحال أن يبسطوا سلطانهم على كافة الأذهان والأسماع والأذواق المبعثرة في قبائل رعوية مشردة،

(١) السابق، ص٣٢٠.

(٢) خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص١٨-١٩.

كان الكثير منها على احتكاك بالشعوب الشقيقة حول أطراف الجزيرة العربية، وذلك على الرغم من تشدد العلماء الذين قاموا بتدوين اللغة العربية منذ منتصف القرن الثاني الهجري، فلم يأخذوا إلا عن القبائل التي قدروا أنها لم تحتك بالشعوب الأخرى، وهي لم تتجاوز السبع من العشرات. وإذن فإن المعاني (المعجمية) للمفردات التي لا تتوافق مع خصائص ومعاني حروفها هي بالضرورة مصطلحات قد تواضع الناس على معانيها وأصول استعمالاتها، وفيها الدخيل وغير الدخيل على قلتها وبذلك تكون دراساتي قد احتوت نظريات الفئات الثلاث.

٤- **النظرية الفطرية**: إن دراساتي اللغوية تنتمي أصلاً إلى هذه النظرية. ولكنها قد تميزت من مدارسها أول ما تميزت بمنطلقها الفلسفي الجديد - «التوافق بين القيم الجمالية والقيم الإنسانية». فقد أخذ بي هذا المنطق قسراً عني.. إلى تقصي خصائص كل حرف عربي في شتى مواقعه بحثاً عن شتى معانيه، وذلك للتثبّت من مدى توافقهما مع مقولتي العتيدة[1].

إذن حسن عباس يعتمد تلك النظريات في نشأة اللغة، ويرى أن دراسته ترضي الأطراف كلها، وإن كانت تنتمي للنظرية القائلة بفطرية اللغة! وقد قدم مفهوما لنظرية الاصطلاح فيه شيء من الخلط، فمصطلح الاصطلاح الوارد في قضية نشأة اللغة لا يُقصد به دور الاصطلاح في تنمية اللغة، فهذا أمر متفق عليه، ولا أعلم له مخالفاً، وإنما الشأن في عدّ نشأة اللغة نشأة اصطلح عليها مجموعة من البشر وبين المفهومين فرق بيّن.

وأما عاصم المصري فقد ربط نشأة اللغة بنشأة الكون، فمع انبثاق الكون انبثقت الأبجدية، بالترتيب الأبجدي نفسه، فالترتيب الأبجدي هو ترتيب نشأة الكون، يقول: «وللتدليل بالتوضيح على مبرر تنسيق هذا التتابع والترتيب، وفقا

(١) بتصرف يسير من خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص١٩-٢٠.

لحركة التكوين الكلية للوجود، نقرؤه كما يلي: بدأ التأليف بـ«الألف»الزمكانية التي فجر كمون طاقتها انبثاق «الباء»، فتجمعت الغازات بـ«الجيم»، محولة الطاقة إلى مادة، ثم اندفعت المواد إلى «الدال»...» إلخ[1]، وفي موضع آخر يرى أن الحروف نشأت من الألف والحاء، ثم تناسلت بقية الحروف منهما كما تناسل البشر من آدم وحواء، يقول: «الحروف حسب ما توصلت إليه استنتاجاتنا...هي سلالة نشأت من بعضها كما آدم وحواء؛ أي بألف التأليف في آدم، وحاء التعاظم والاحتواء في حواء؛ بما يفيد الاستنساخ، ثم تناسلت وتسلسلت منها سلالات تزاوجت جيناتها بمسميات تسمت بأسماء الحروف نفسه، الحرف البادئ هو المخصِّب والثاني المخصب، يتم ويتوجه به خلق الحركة، إما في بعد زمكاني بالفتحة، أو مكاني بالضمة، أو زماني بالكسرة، أو توقف بالسكون»[2].

أما إياد الحصني فنقطة انطلاق اللغة عنده من الألفاظ التي كانت موجودة في عهد آدم عليه السلام سواء كانت توقيفية من عند الله أم وضعية أبدعها الإنسان الأول، وهذه الألفاظ قد وضعت على أسس سليمة، يقول: «لا بد أن يكون هناك ألفاظ عربية أصيلة أساسية وهي التي وضعت أو أوقفت حسب قواعد، وأسس سليمة، وهذه الألفاظ هي الأسماء والصفات والأفعال التي كانت موجودة لحظة وجود آدم عليه السلام»[3]، ثم ذكر طبيعة هذه الألفاظ، وأنها ألفاظ حسية، يقول: «إنّ الإنسان العربي الأول بدأ بوضع الأسماء الأساسية للأشياء المادية الموجودة في الطبيعة والأشياء الحسية التي يحتاج إليها في بداية حياته الأولى، وليس من المعقول في كلتا الحالتين -تطوير اللغة الوقفية أو وضع اللغة الوضعية- أن يقوم الإنسان العربي بوضع أسماء لأشياء مادية أو حسية غير موجودة إنما جاءت من بعد وعلى مدى طويل»[4].

(١) الأبجدية ودلالاتها: النظرية والتطبيق، ص٧٠.
(٢) السابق، ص٦٩.
(٣) معاني الأحرف العربية، ص١١.
(٤) السابق.

وقد جعل هذه الألفاظ هي الأساس في بحثه عن معاني الحروف، يقول: «إذن أسماء وصفات الأشياء المادية أو الحسية الموجودة ابتداء مع وجود الإنسان هي التي ستكون مادة للبحث فيها عن القواعد والأسس لدلالة اللفظ»[1]. وهذه اللغة التي سيعتمدها الحصني في الوصول إلى معنى الحروف، وهو صنيع يذكرنا بصنيع النيلي الذي يرى ضرورة الرجوع إلى لغة قياسية كما سبق.

إنّ القول بفطرية اللغة قد ذهب إليه محمود شاكر في مقالاته التي ساقها من أجل الكشف عن معاني الحروف، فالعربية في نظر شاكر هي أكثر اللغات احتفاظاً بالمعاني الفطرية، يقول: «ونحن إنما نتكلم عن العربية؛ لأنها في اعتقادنا -بعد الذي مارسناه من معانيها- أدقُّ اللغات احتفاظاً بالمعاني الفطرية للحروف، بل هي أكثر اللغات احتفاظاً بحركة الإنسان الأوَّل في الإشارة إلى المعاني، وذلك حين يريد أن يقرن الصوت بحركة دالّة على معنى من الإشارة يُفهم بهِ المتكلمُ المخاطبَ ما يريد أن ينبهه إليه أو أن يحمله على فهمه»[2]، وفي موضع آخر يقارن بين المعاني الفطرية الأولية في حياة الإنسان والأصوات التي تعبر عنها، يقول: «ولعل من أوائل الحاجات التي يُدفع الإنسانُ للتعبير عنها النداءُ والتعجُّب والتأوُّه والأنينُ والإشارةُ والتنبيهُ، وغير ذلك مما تدعو إليهِ معاناة الحياة الفطرية الأولى التي بدأ الإنسان بها عمله على الأرض. فإذا استوعبت أمثال هذه الضرورات وجعلت تأخذُ نفسك بتدبرها في فطرة الإنسان رأيت أن النداءَ مثلاً يعتمد على أصوات الحلق المقذوفة من الجوف مطلقة في الهواء لتبلغ بالصوت أقصى ما يطيقه تدافعُ الهواء الذي يجعله. وكذلك الإشارة والتنبيه يتطلبان من المشير والمنبه إرسال الصوت خارجاً من الحلق إلى حيث يلاقي الهواء المقابل لفم الإنسان. ثم إذا أنت أردت كل حرفٍ بما يتجلى من صداه المقرون به -على المعاني الأولى- استطعت أن تقرّر لصدى الحروف معاني من النفس أو من المحاكاة أو من التمثيل للحركة أو الصوت المسموع أو غير ذلك.»[3]،

(١) السابق.

(٢) جمهرة مقالات الأستاذ محمود شاكر، ج٢، ص٧١٨.

(٣) السابق.

ثم يصل إلى النتيجة الآتية التي تقول بأن العربية أكثر اللغات احتفاظا بالمعاني الفطرية وأدل اللغات على الحركات التي واكبت استعمال الحروف من قبل ما أسماه بالإنسان الأول، يقول: «فإذا صحَّ لكَ، ما نذهبُ إليه، استخرجتَ من ذلك ضرورة أن تكون جميعُ الألفاظ العربية -التي ندعي لها هذه الحكمة الشريفة: في إمساسِ الحرف والكلمة شبهاً من معاني الفطرة ودواعيها- مبينة كل الإبانة عن هذا الرأي الذي نجرى إليهِ، باشتمالها على أحد هذه الحروف الحلقية. ويقتضي ذلك أن تكون كل أدوات الاستفهام والنداء والإشارة والتنبيه والفزع والتحذير، وسائر الألفاظ ذوات المعاني المقاربة لذلك -مشتملةً على أحد هذه الأحرف ... وإذن فواجبنا -بعد الذي قلناه وعرضناهُ- أن نقدّم الدليل من ألفاظِ العربية على صحة ذلك، وأنه طريقةٌ ممهدةٌ على لسان هؤلاء الناس من العرب، وأنهُ إذا كانَ ما نقول بهِ، فاللغة العربية هي حقا -على ما ادعيناه في الكلمة السالفة- أدق اللغات، وأكثرها احتفاظاً بالمعاني الفطرية للحروف، وبالحركات التي لجأ إليها الإنسان الأول فقرنها بالحروف للدلالة على معنى ليس يقومُ الحرفُ على بيانِه كلهِ إذا أفردَ وحده للتعبير عنهُ»[1].

٢- تطور اللغة:

والحديث هنا عن أصل اللغات بين الأحادية وغيرها، وعن المراحل التي مرت بها اللغات:

أ. اللغة بين الأحادية والثنائية والثلاثية:

لعل هذه المسألة من المسائل التي تعين الباحث في فهم صورة اللغة عند أولئك الدارسين، وهي مسألة متعلقة بلا شك بمعاني الحروف، فهل نشأت اللغة من المقطع الأحادي الدال على المعاني البسيطة، ثم مع انتقال المعاني البسيطة والفطرية إلى معانٍ معقدة انتقلت اللغة من الأحادية إلى الثنائية فالثلاثية؟

(١) جمهرة مقالات محمود شاكر، ج٢، ص ٧٢٧-٧٢٨.

أما عبدالله العلايلي فإنه يرى مرور اللغة كل لغة بأطوار ثلاثة، يقول: الأول: ذو المقطع البسيط...الثاني: ذو المقطعين... الثالث: ذو المقاطع..وفي ختام هذه الأدوار التي تؤلف العهد الأول، وقفت لغات وأُميتت لغات، ونشطت لغات، آخذة بالحياة الجبارة. وهذه وحدها هي التي ألفت العهد الثاني الذي يُسمى عهد اللغات المرتقية»[1].

وسار حسن عباس على رأي العلايلي، يقول: إنّ» العربية قد بدأت بالمقاطع الأحادية ثم بالثنائية، ثم بالثلاثية فالمزيدات، كما ذكر العلايلي في مقدمته، وهو صحيح»[2].

وأما النيلي فقد ذكر أن هذه المسألة ساقطة من اعتبار نظريته، ولكن يمكن إجابة هذا السؤال من النظرية إذا فُهمت على وجهها، فاللغة تعبر عن الحركة الطبيعية، فالمعول عليه الكفاية في وصف الحركة، وقد نشأت الأصول الأحادية والثنائية والثلاثية سوية، يقول مجيبا على السؤال الآتي: «هل يجيب الحلّ القصدي على إشكالات أصل اللغة؟ هل هي من الثلاثي أم الثنائي مثلاً؟

ج: إن الحلّ القصدي يجيب على جميع الإشكالات في اللغة. لكن يتوجّب انتزاع هذه الإجابات من النظرية.

وبالنسبة لأصل اللغة فإن هذا الموضوع ساقطٌ عن الاعتبار؛ لأنّ الحركة الطبيعية إذا كان يكفي لوصفها حرفٌ واحدٌ لأنها نقلةٌ واحدةٌ فقد وُصفت بحرف وإذا كان يكفي لها حرفان فحرفان... وهكذا. أي أن الأصول نشأت سويةً وفي آنٍ واحدٍ وإن التغيّرات لا تشمل عدد الحروف في الأصول. نعم ... يحدث اختصارٌ ودمجٌ وغير ذلك ولكنه لا علاقة له بما نحن فيه. وهذا يفسّر لنا أيضاً سبب كثرة الثلاثي. فمن الطبيعي أن يكثر لأنّه أفضل وأدقّ وأقل كلفة وأضبط توازناً في آنٍ واحدٍ لوصف أيّة حركة هو في أن تصفها بثلاث نقاطٍ... مبتدأها

(١) مقدمة لدرس لغة العرب، ص١٩١.

(٢) خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص١٠.

ووسطها ومنتهاها... وهذا بمثابة اختصار لعمر أو حياة الحركة مثل أن تصف شخصاً فتقول: طفولته كذا وشبابه كذا وشيخوخته كذا. فتكون قد استوعبت حياته واختصرت في الوصف»[1].

وقد كان يأمل النيلي بأن نظريته ستصل لنتيجة في هذه المسألة، يقول في الكتاب نفسه: «إذاً فالمفردات الثلاثية الأحرف هي الأكثر شيوعاً في اللسان الطبيعي. وإلى حين ظهور هذا الشرح مع معاني الحروف فسنأمل الانتهاء من البحث والجدال في منشأ اللغة هل هو ثلاثي أم ثنائي أم أحادي أم هو رباعي؟»[2].

ولكن يبدو أنّه لم يصل إلى نتيجة، أو لعل إسقاط هذه القضية هو الحل الذي توصل إليه، فالحركة الطبيعية هي التي تحدد عدد الأصوات، فقد يعبر عنها بصوت واحد، أو اثنين، أو ثلاثة، فتكون اللغة منذ نشأتها الأولى فيها المقطع والمقطعان والثلاثة.

ب. مراحل تطور اللغة:

كتب غير باحث من هؤلاء الدارسين -وهم العلايلي وحسن عباس والمصري- تصوراً لمراحل تطور اللغة، وللأدوار التي بها مرت، فعبدالله العلايلي جعل اللغة ثلاثة أدوار:[3].

الدور الأول: لغة الإنسان الفطري: مرحلة لأصوات غير المتشكلة، أصوات تتولد عند الانفعالات.

الدور الثاني: دور المقاطع الثنائية، وضم الأصوات إلى بعضها.

(١) اللغة الموحدة، ص٥٣٨.

(٢) السابق، ص ١٦٧.

(٣) بتصرف، مقدمة لدرس لغة العرب، ص١٩٥ وما بعدها.

الدور الثالث: العصر الحجري المهذب، وهذا الدور يقع في خمس حلقات متباعدة المدى:

الحلقة الأولى: وكانت لغة على مقياس من تفكيره وحوائجه، ولا يبعد أن تكون هذه الحلقة امتدت إلى آخر العصر البرونزي الذي تم للإنسان فيه وضع الحجر الأساسي في بناء الحضارة.. وعماد هذه الثروة اللغوية التي نقدرها في الحلقة الأولى من الدور الثالث:

أ- المفردات ذات المقطع الواحد، وهي الجدول الهجائي فيما بعد.

ب- المفردات ذات المقطعين، وهي المعلات في دور النضوج اللغوي.

ج- المفردات ذات المقاطع، وهي التي انتهت كوحدة في العربية تنحل إليها كلمات اللغة وتصدر عنها، وهذه المفردات الأخيرة كثرت جداً.

الحلقة الثانية: قارنت هذه الحلقة من حياة اللغة العصر الذي اصطلح عليه في الدوائر العلمية والاجتماعية، باسم العصر الحديدي... ولا ريب في أن اختراع الكتابة يكشف عن مقدار التقدم اللغوي لذلك العصر.

الحلقة الثالثة: إنّ الحلقة الثانية... انفصلت بما شهدنا من ارتقاءات لغوية في البناء والوضع حتى للإنسان أن يجمع هدفه في الكتابة بعد اللغة، وتم له معرفة الاسم والفعل بمنزلة الوصف، والحرف المهمل دون الحرف الذي جاء لمعنى... وعمل العربي في هذه الحلقة، كان في الاهتداء فقط إلى محل الزيادة، ومن بعد اطراد التكاثر على سنة بعينها لا يعدوها، ولا يأخذ مأخذاً مباينا، بل يحاكي ويقلد ويلحف في المحاكاة على قانونها.

الحلقة الرابعة: تم فيها النضوج اللغوي عند العرب، فلم تعد اللغة في حاجة إلى شيء مما كانت تحتاجه أولاً، بل خضعت خضوعاً عاماً لأصول في الوضع اعتبرها اللغائيون (الفيلولوجيون) أسمى وأرفع ما عرفت أمة من الأمم... وقد جعل العربي القلب محور الوضع... وأعتقد بأن مقدر الثروة

العظيمة التي حازتها العربية، إنما كانت من عمل القلب فقط بينما كان عمل الإبدال، وما إليه في جانبه نزراً يسيراً...

الحلقة الخامسة: احتاج العربي إلى الزيادة ولكن احتفظ بالثلاثي كوحدة للمعنى... فالزيادة على أقسام:

الأول: زيادة البناء، وتكون على الثنائي لتحصيل الثلاثي وموضعها الوسط.

الثاني: زيادة الاشتقاق، وتكون على الثلاثي لتحصيل الرباعي وما إليه وموضعها الآخر.

الثالث: زيادة التصريف، كتفعّل، واستفعل وموضعها الأول غالباً لعدم الالتباس.

وأما حسن عباس فقد قدم هو الآخر نظرية لتاريخ اللغة العربية مبنية على تاريخ العرب في الجزيرة العربية، فالعرب مروا بثلاث مراحل[1]:

المرحلة الغابية: وقد بدأت مع بداية العصر الجليدي الأخير منذ الألف (١٠٠) ق.م واستمرت حتى نهايته في الألف (١٤-١٢) ق.م وقد ورثنا عنها يقيناً أصول أحرف (الهمزة -ا-و-ي)، وقد انتهى كما يقول إلى أن الأحرف الهيجانية الغابية: «الهمزة- ا-و-ي) لا تأثير يذكر لخصائصها في معاني المصادر الجذور على واقع المعاجم اللغوية، وبذلك تكون معدومة المعاني، ولكنه لاحظ كثرة دورانها في حروف المعاني التي يتألف معظمها من حرف واحد أو حرفين، مما يشير إلى أنها أقدم المستحدثات في اللغة العربية: تأسيساً على أن العربية قد بدأت بالمقاطع الأحادية ثم بالثنائية، ثم بالثلاثية فالمزيدات...وإذن، فالإنسان (الغابي) قد اعتمد الحركات الجسمية للتعبير عفوياً، وليس (إرادياً) عن حاجاته وبذلك تكون الحركات الجسمية الإرادية (المحدثة) في المرحلة الزراعية لها (أصولها) الفطرية

(١) خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص١٠، ١١، ٢٩٥ بتصرف.

في المرحلة الغابية. كما أن الإنسان (الغابي) باعتماده الأصوات الهيجانية الانفعالية، كان يعتمد بذلك أصداء أصواتها في نفسه للتعبير بها عفوياً لا (إرادياً) عن حاجاته وهكذا كانت الأصوات الإيحائية الإرادية (المحدثة) في المرحلة الرعوية لها (أصولها) الفطرية في المرحلة الغابية.

المرحلة الزراعية: واستمرت حتى الألف (٩) ق.م وقد ورثنا عنها باحتمال شديد أصول أحرف (ف-ل -م- ث-ذ)، عندما انتقل أبناء الجزيرة العربية من المرحلة (الغابية) المشردة إلى المرحلة (الزراعية) المستقرة، كانوا يمتلكون ثروة متواضعة من الأصوات الهيجانية والحركات الجسمية العفوية، بما يكفي للتعبير عن حاجاتهم المعيشية المحددة. ولكن معظم هذه الأصوات والحركات قد سقط من التداول في المرحلتين الزراعية والرعوية لعدم اللزوم. أما ما بقي منهما، فقد تهذب بما يناسب التواصل اللغوي في المرحلتين آنفتي الذكر ولم يبق لنا من أصولها يقينا مما احتفظ بخصائصه (الهيجانية والإيمائية) سوى (الهمزة والألف اللينة والواو والياء)، وبفرض أن الإنسان العربي قد اهتدى في المرحلة (الغابية) إلى أصول بعض الأصوات مما يسهل النطق بها عفوياً مثل (الباء- الميم- التاء- الدال...) فإنها لم تحتفظ بخصائصها الهيجانية، وهذا يجيز لنا أن نستبعدها عن فئة الأحرف (الغابية) ونلحق كلاً منها بالمرحلة التي تتوافق مع خصائصه الإيمائية أو الإيحائية في معظم استعمالاته ومعانيه. كما أضافوا في المرحلة الزراعية إلى ما ورثوه عن المرحلة الغابية حركات جسمية إرادية ترافقها أصوات مناسبة للتعبير عن حاجاتهم الحضارية المستجدة. وقد سقط معظمها من التداول في المرحلة الرعوية لعدم جدواها، ولم يبق لنا منها يقيناً سوى أصول أصوات (ف-ل-م-ث-ذ) واحتمالاً، حرفي (ش-خ). وعلى مدى آلاف الأعوام من التعامل الحضاري البكر مع الأحرف الغابية (الهيجانية) والزراعية- (الإيمائية)، كان لا بد لهاتين الفئتين من الأحرف أن تستكملا الكثير من مقوماتهما (الشخصية) فتصبح أصواتهما والحركات المرافقة لها صالحة للتعبير عن حاجات المرحلة الزراعية في لغة (إرادية) فطرية غير اصطلاحية.

المرحلة الرعوية بعد استحكام الجفاف في الجزيرة العربية واستمرت حتى العصور الجاهلية وفجر الإسلام. وقد ورثنا عنها باحتمال شديد بقية الحروف، وكما انبثقت المرحلة الرعوية القطيعية البكر لأول مرة في تاريخ الإنسانية من رحم المرحلة الزراعية الأم في الجزيرة العربية حصراً منذ الألف (٩) ق.م. كذلك كان الأمر مع التواصل اللغوي.. فعندما غادر أبناء الجزيرة العربية الحياة الزراعية المستقرة إلى الحياة الرعوية الجوالة، كانوا يملكون ثروتين عظيمتين من القطعان المستأنسة في القطاع الاقتصادي، ومن الأصوات الهيجانية والحركات الإيمائية المروضة في القطاع اللغوي. وفجأة يجد الرعاة الأوائل أنفسهم في العراء لا أسوار تحميهم ولا سقوف تقي. فالبيئة (الطبيعية -الإنسانية) التي واجهتهم لا عهد لهم بالتعامل مع معظم ما تحويه من الكائنات الحية والنباتات البرية والتضاريس الأرضية والكواكب والنجوم. كما لا عهد لهم بما أصبحوا يعانون فيها من قساوة المناخ وشظف العيش، ومن مخاطر التجوال دفاعاً عن النفس وحماية للقطيع، ونزاعاً على المناهل والمراعي. دنيا جديدة في تحركها ومحتوياتها ومخاطرها، قد أضطرهم التعامل معها إلى إبداع المزيد من المفردات الجديدة للتواصل فيما بينهم... ولكن هؤلاء الرعاة الأوائل، بعد أن استنفدوا الخصائص الهيجانية والإيمائية لهذه الأحرف قرناً بعد قرن، فضاقت بهم عن التعبير عن معانيهم وحاجاتهم المتطورة، قد أخذت (مجامعهم اللغوية) تحت الخيام في ساهرات الليالي المعتمة تبتكر أصواتاً جديدة توحي بمعانيها إيحاء، بمعزل عن الحركات الجسمية، لعدم جدواها في الظلام ليلاً، ولا عبر المسافات البعيدة نهاراً. وهكذا كان من البداهة أن يقوموا بإضافة الحرف الرعوي المناسب إلى أوائل المقاطع الثنائية الحروف الموروثة، أو إلى أواخرها أو أواسطها حسب مقتضى الحال وفقاً لمقولة ابن جني: «سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المراد». وعندما كثر ما أبدعوه من أصول أصوات الحروف الرعوية، ألف عام بعد ألف، راحوا يؤلفون مقاطعهم الثنائية والثلاثية والمزيدات مما أبدعوه من الحروف الرعوية الإيحائية ومما ورثوه من الحروف الهيجانية والإيمائية. أما مزيدات الثلاثي، فإن معظم الأحرف المزادة عليه هي من الأحرف الغابية. وإذا أضفنا إليها حركات الشكل (الفتحة

والضمة والكسرة) مخففات (الألف اللينة والواو والياء)، فإن أحرفنا الموروثة من عهد الغاب تتدخل في كل شاردة وواردة من شؤوننا اللغوية. وذلك على مثال ما تتدخل غرائزنا وطباعنا وأمزجتنا الموروثة عن عهد الغاب في كل شاردة وواردة من شؤوننا الحياتية الخاصة والعامة على حد سواء.

هذان الباحثان اللذان تحدثا عن المراحل التي مرت بها اللغة بشيء من التفصيل، وقد ذكر عاصم المصري: أنّ» اللغة مرت في كل أمة بثلاثة أطوار، الطور الأول الطبيعي المنطقي، القائم على الحركات والأصوات، والطور الثاني الاجتماعي، الذي أخذ فيه كل قوم يجعلون لتلك الحركات والأصوات معاني لم تكن لها في الطور الأول، ثم الطور الثالث الغنائي»[1].

إذن يمكن إجمال ما سبق في النقاط الآتية:

- عبدالله العلايلي: يرفض الدخول في جدل نشأة اللغة أتوقيفية أم اصطلاحية؟، وقد مرت اللغة من وجهة نظره في ثلاثة أطوار: أصوات غير متشكلة «انفعالات»، المقاطع الثنائية، العصر الحجري المذهب وفيه حلقات خمس. فاللغة عنده أي لغة مرت بأطوار ثلاثة: ذو المقطع، وذو المقطعين، ثم ذو المقاطع.
- عالم سبط النيلي: عند النيلي هناك لغة قياسية هذه اللغة قد تكون لغة قوم أو لغة حكيم لا يهم، ولم يتحدث عن نشأتها ولم يشتغل بهذا التساؤل، ولكنه يفرق بين اللغة واللسان، فاللغة نظام الكلام، وهو نظام واحد، غير متعدد، وهذا المقصود بنظريته» اللغة الموحدة»، واللسان ناتجٌ عرضيٌّ للتغيّرات الطارئة على هذا النظام ترابطاً وأصواتاً وتراكيباً ونبراتٍ، -فالألسن طارئةٌ على اللغة،وهناك لسانٌ واحدٌ يطابق النظام الشامل للغة، واللغة العربية – عنده – جزء من اللسان طاله التخريب والاعتباطية شأنه

(١) الأبجدية ودلالاتها: النظرية والتطبيق، ص١٣.

شأن اللغات الأخرى، وأما ما يتعلق بتطور اللغة فقد ذكر أن هذه المسألة ساقطة من اعتبار نظريته.

- حسن عباس: يرى أنّ نظريات نشأة اللغة تعود كلها إلى أربع نظريات: التوقيفية، والاصطلاحية، والتوفيقية، والفطرية، والذي يظهر أنه يراها صحيحة كلها صالحة لتفسير نشأة اللغة، ونظريته متصالحة معها كلها، ولكنها تنتمي للفطرية، وأما أطوار اللغة عنده فهي هي عند العلايلي، وقد قسم اللغة العربية إلى ثلاث مراحل مرتبطة بالمراحل التي مر بها العربي: المرحلة الغابية، المرحلة الزراعية، المرحلة الرعوية.

- عاصم المصري: يرى ارتباط اللغة بالكون، فنشأة اللغة مرتبطة بنشأة الكون، ومع انبثاق الكون انبثقت الأبجدية، وترتيب الأبجدية متعلق بالمراحل التي مر بها الكون في نشأته، ويتبنى المصري القول بأن اللغة مرت في كل أمة بثلاثة أطوار، الطور الأول الطبيعي المنطقي، القائم على الحركات والأصوات، والطور الثاني الاجتماعي، الذي أخذ فيه كل قوم يجعلون لتلك الحركات والأصوات معانٍ لم تكن لها في الطور الأول، ثم الطور الثالث الغنائي.

- إياد الحصني: لم يتبن رأيا في نشأة اللغة، ولكن ذكر أن هناك كلمات عربية أصيلة في عهد آدم عليه السلام، وهذه الألفاظ ألفاظ حسية سيعتمد عليها في الوصول إلى مبتغاه.

- محمود شاكر: لم يتحدث شاكر عن نشأة اللغة إلا أنه كرر الحديث عن المعاني الفطرية التي صاحبت الإنسان الأول البدائي.

إذن فعبدالله العلايلي وعالم سبيط النيلي ومحمود شاكر وإياد الحصني لم يتبنوا قولاً من الأقوال المشهورة في هذه المسألة مسألة أصل اللغة، وعلى العكس تبنى حسن عباس الأقوال كلها ورأى أنها كلها صالحة لتفسير نشأة اللغة، ودراسته في

خصائص الحروف العربية ومعانيها قد تصالحت مع النظريات الآتية: التوقيفية، والاصطلاحية، والتوفيقية، وأما النظرية الرابعة وهي الفطرية فدراسته أصلاً تنتمي إليها، وقد تبنى عاصم المصري القول بعلاقة نشأة اللغة بنشأة الكون، وأن الأبجدية كان ظهورها متزامنا مع نشأة الكون مواكباً له!

وأما بالنسبة لتطور اللغة فيكاد يجمع الباحثون على أن اللغة مرت بمراحل -خلا النيلي الذي يرى أنّ اللغة تعبر عن الفكرة والأفكار منها ما يحتاج إلى مقطع للتعبير عنها ومنها ما يتطلب أكثر- وهذه المراحل عند العلايلي وحسن عباس ثلاث: مرحلة المقطع الصوتي الواحد، ثم مرحلة المقطعين، ثم مرحلة المقاطع.

هذا وإن اتفق العلايلي وحسن في المراحل العامة لتطور اللغة، فقد اختلفا في تفصيلات تطور اللغة، فالعلايلي يقسم اللغة إلى أدوار ثلاثة وكل دور له خصائصه وأما الدور الثالث فقسمه لخمس حلقات، وحسن عباس يرى أنّ مراحل تطور اللغة تابعة لحياة العربي في الجزيرة الذي تنقل من المرحلة الغابية إلى الزراعية إلى الرعوية.

وأما مراحل تطور اللغة عند المصري فهي: الطور الأول الطبيعي المنطقي، القائم على الحركات والأصوات، والطور الثاني الاجتماعي، الذي أخذ فيه كل قوم في جعل لتلك الحركات والأصوات معاني لم تكن لها في الطور الأول، ثم الطور الثالث الغنائي.

وعند محمود شاكر لغة الإنسان البدائي كانت تعبر عن المعاني الفطرية.

هذه خلاصة ما تبناه الباحثون من آراء في نشأة اللغة وتطورها، ويلاحظ عليها ما يلي:

أولاً: مسألة نشأة اللغة من المسائل التي بدأ فيها الجدل منذ القدم ولم ينتهِ بعد، أو لم يحسم، ومن أشهر الأقوال في ذلك القول بأنها توقيفية، والقول الآخر أنها اصطلاح، ولكل فريق أدلة يستدل بها على صحة قوله، وليس هذا المجال مجال ذكرها فهي مبثوثة في مظانها المشهورة، والملاحظ على الباحثين المعنيين في

هذه الدراسة تجاوز هذا الخلاف، وعدم الالتفات إليه مع أنّ القول الذي تبنوه يتطلب النظر في نشأة اللغة ومصدرها، ولم يشذ عنهم إلا حسن عباس الذي حاول التصالح مع جميع النظريات، وإن اختلفت اختلاف تضاد، فحسن عباس حاول الجمع بين النظريات وربطها بدراسته!

والذي يظهر أنّ عباس لم يفهم مناط الخلاف بين النظريات، فالنظريات تتعلق بنشأة اللغة وأصلها، وليس بدورها في تنمية اللغة، فالقائل بأنّ نشأة اللغة توقيفية لا ينكر دور التواضع والاصطلاح في تنميتها كيف وهو واقع ملموس!

ثانيا: غرابة رأي عاصم المصري، فتارة يربط نشأة الأبجدية بنشأة الكون ربطاً عجيباً دون تقديم أدلة وأنّى له، وتارة أخرى يربط بين الحروف والسلالات البشرية، فالألف آدم الحروف والحاء حواؤها، ثم تناسلت بقية الحروف منها، وهيهات أن تظفر بدليل علمي يقدمه عاصم المصري على الرأيين، بل في قوليه تعارض ظاهر بيّن، ففي القول الأول يتبنى الترتيب الأبجدي أب ج د... ويراه مطابقاً لنشأة الكون، وفي الثاني يقدم الحاء ويجعله مع الألف أصل الحروف، ومنهما تناسلت!

وما دام الحديث عن عاصم المصري فسنقدم رأيه عن تطور اللغة ليكتمل تصوره عن اللغة وتطورها، فهو يرى أنّ اللغات كلها مرت باللغة مرت بثلاثة أطوار، الطور الأول الطبيعي المنطقي، القائم على الحركات والأصوات، والطور الثاني الاجتماعي، الذي أخذ فيه كل قوم يجعلون لتلك الحركات والأصوات معانٍ لم تكن لها في الطور الأول، ثم الطور الثالث الغنائي.

ولم يبّين ما المقصود من الطبيعي والمنطقي ولا الغنائي؟ ولم يذكر لنا كيف وصل إلى ذلك الطور الذي كان فيه يصدر الإنسان أصواتاً لا معنى لها، ثم في مرحلة لاحقة جعل لتلك الأصوات معاني؟!

وأترتيب الأبجدية المرتبط بنشأة الكون خاص بالأبجدية العربية أم عام في الأبجديات، وهل يرى عاصم المصري أنّ الأبجدية هاته هي أصل الأبجديات؟

وهل تناسل الحروف من الألف والحاء خاص بالعربية، فبعض اللغات ليس فيها حاء أصلاً؟

كيف يمكن تفسير اختلاف ترتيب الأبجدية بين المشارقة والمغاربة[1]؟

فهذه جملة من الأسئلة التي لم يتطرق لها عاصم المصري، وهي قادحة في ما يقدمه من تصور لنشأة اللغة، وتطورها، وما تبع ذلك من آراء بُنيت عليه.

ثالثاً: ما يتعلق بمراحل تطور اللغة من مقطع إلى اثنين إلى مقاطع لم يقدم أصحاب هذا القول أدلة كافية في إثباته، وقد راجت تلك الأفكار القائلة بالأصول الأحادية والثنائية للغة قبل الثلاثية، وبخضوع اللغات إلى مراحل تطورية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين متأثرين بتطبيقات الدارونية على اللغة الذي بدأه شلايشر[2]، وقد تجاوز علم اللغة ذاك التطبيق الجائر وأصبح يدرس في مجال التأريخ لعلم اللغة، وعلى كل كان ينقص أولئك المتحمسون لمرور اللغة بتلك المراحل الأدلة الكافية لتبني هذه الآراء.

رابعاً: يتبع ما سبق، المراحل التي ذكرها العلايلي في تطور اللغة العربية المكون من ثلاثة أدوار: الأول: لغة الإنسان الفطري وفيه الأصوات غير المتشكلة، والثاني: ذو المقاطع الثنائية، والدور الثالث مكون من خمس حلقات، وتنقصه الأدلة كما ذكرنا سابقاً، فتلك الافتراضات تحتاج إلى أدلة تعضدها، وما أدق وصف عبدالصبور شاهين له؛ إذ يقول: «أفكاره تتكامل نظريا فقط دون أن يستطيع تأسيسها على تكامل لغوي»[3]. إنّ آراء العلايلي بحاجة إلى الأدلة الكافية المبنية على الأصول العلمية المعتبرة، وليس مجرد تخمينات وخيالات، وإحالات إلى عصور يُظن أنّ اللغة فيها بسيطة بدائية بضرب من الحدس والخيال.

(١) عند المشارقة: أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ، عند المغاربة: أبجد هوز حطي كلمن صعفض قرست ثخذ ظغش.

(٢) ينظر الدارونية اللغوية: بين الأصول الأوروبية والتجليات العربية، لعبدالمنعم السيد أحمد جدامي، كنوز المعرفة، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ، ص١٥٦.

(٣) في التطور اللغوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ، ص٩٢.

خامساً: وقريب من العلايلي بل أشد منه إغراقاً في الخيال ما قدمه حسن عباس الذي قسم حياة العرب إلى مراحل: الغابية، الزراعية، والرعوية، وكل مرحلة لها خصائصها اللغوية، ففي الغابية يصدر الإنسان أصواتاً مصاحبة لحركات جسمية عفوية للتعبير عن حاجاته، وقد ظهرت في تلك الفترة أصوات لم يبق منها إلا (أ-و-ي -أ)، وفي المرحلة الزراعية أضافوا إلى ما ورثوه عن المرحلة الغابية حركات جسمية إرادية ترافقها أصوات مناسبة للتعبير عن حاجاتهم الحضارية المستجدة، ولم يبق من هذه الأصوات في المرحلة الرعوية إلا (ف-ل-م-ث-ذ) واحتمالاً، حرفي (ش-خ)، وفي المرحلة الرعوية ورثنا - على حد تعبيره- بقية الحروف، وفي هذه المرحلة راحوا يؤلفون مقاطعهم الثنائية والثلاثية والمزيدات مما أبدعوه من الحروف الرعوية الإيحائية ومما ورثوه من الحروف الهيجانية والإيمائية.

والحقيقة أنّ هذا القول فيه ثغرات معرفية ومنهجية عدة منها:

١. على ماذا اعتمد الباحث في تقسيم تلك المراحل، فالتقسيم المشهور عند المؤرخين تقسيم العرب إلى عرب بائدة، وعرب عاربة، وعرب مستعربة، وفي التأريخ للعرب العاربة خلاف يدركه المطلع على كتب التاريخ، وهم أقرب بكثير من التواريخ التي ذكرها حسن عباس المغرقة في التاريخ، فأي المصادر البحثية والمراجع العلمية التي اعتمدها في هذا التقسيم؟ وهذه ثغرة منهجية في عمل حسن عباس عليه أن يقدم مراجعه التي اعتمدها ويوثق معلوماته إن كان يعود فعلاً إلى مراجع أما إن كانت توقعات وخيالات فهذا شأن آخر، وقد عدت إلى قائمة مراجع الكتاب فلعله نسي التوثيق فلم أظفر بكتاب في التاريخ، ومراجعه كلها لغوية لا شأن لها بتأريخ لحياة العرب!

٢. لم يحدد حسن عباس الحروف التي كانت في المرحلة الغابية، ولم يبق منها سوى الألف والياء والواو والهمزة، وكيف عرف أنّ ثمة حروفاً

مستخدمة في تلك المرحلة، ثم استُغنيَ عنها، فالحروف المذكورة يقول: إنها بقيت في المراحل اللاحقة، ولن نناقشه في هاته الحروف، المناقشة في هذه النقطة متعلقة بتلك الحروف التي لم تصل إلينا كيف وصل إلى هذه النتيجة؟! ومثلها الأصوات التي استخدمها العربي في المرحلة الزراعية ولم يبق منها سوى أصول أصوات (ف-ل-م-ث-ذ) واحتمالاً، حرفي (ش-خ)، ما تلك الأصوات وما كنهها، ولماذا تركها العربي الزراعي؟ وما دلالتها؟ وما الحاجة التي جعلت العربي يستحدثها في المرحلة الزراعية ويستغني عنها في المرحلة الرعوية؟

٣. كيف يمكن أن نقرأ تلك المراحل في رأي حسن عباس عند تبنينا للقول بأن اللغة توقيفية، ذاك القول المشهور الذي يعتمد أصحابه على مجموعة من الأدلة، القول الذي يرى حسن عباس أنّ نظريته تتصالح معه وتأخذ منه، كيف تكون اللغة توقيفية وهي مرت بتلك المراحل؟ هل يقصد بالتوقيف القدر؟ ربما لكنّه لم يوضح ذلك.

٤. وكيف تكون اصطلاحية وهو يرى أنّها بدأت بأصوات مصاحبة لحركات عفوية مستوحية صداها في النفس؟ هل يقصد أنّها اصطلاحية في مرحلة لاحقة؟ ربما لكنه لم يبين.

٥. هذه جملة من الإشكالات والأسئلة التي أثارها هذا القول المبني على تكهنات وخيالات أبعد ما تكون عن النظرة العلمية المبنية على المناهج البحثية، ولا أريد الدخول في تفاصيل تلك النظرية فذلك يخرجنا عما نحن في صدده.

سادساً: لم يتحدث محمود شاكر عن الأطوار التي مرت بها اللغات أو اللغة العربية، لكنه تحدث في مقالاته عن طور اللغة الأول، وعن المعاني الفطرية، وعن الإنسان الأول، وذكر أنّ الإنسان كان بحاجة إلى التعبير عن المعاني الأولية النداءُ والتعجُّب والتأوُّه والأنينُ والإشارةُ والتنبيهُ والغيظ والحنق، وغير ذلك مما تدعو

إليهِ معاناة الحياة الفطرية الأولى التي بدأ الإنسان بها عمله على الأرض، ويرى أنّ العربية هي أدق اللغات في وصف تلك الحياة الفطرية التي عاشها الإنسان الأول، وكان الإنسان الأول يقرن الصوت بحركة دالّة على معنى من الإشارة يُفهم بهِ المتكلمُ المخاطبَ ما يريد أن ينبههُ إليه أو أن يحمله على فهمه، يقول: «لا بدَّ من اشتمال كل هذه المعاني على الدلالة الفطرية التي تدلُّ بها طبيعة الإنسان على أغراضهِ الأولية القديمة. فكُلُّ ما يرجعُ أصلُ معناه أو بعض فحواه إلى هذه الدلالة، فالواجب لذلك إذن أن يشتمل على حرفِ الحلق الأوَّل وهو «الهمزة»، أو على الحرف الثاني الذي يقاربه ويشابهه ولا يختلف عنه إلَّا بضغطهِ هوائية رفيقة هينة في جوار الحنجرة وهو «الهاء». فإذا تصرفت قليلاً على مثل هذا الأصل ترقَّيت إلى «العينِ»، «فالحاء»، «فالغين»، «فالخاء»، مقدّماً «الحاء» على جميع هذه الأربعة الأخيرة لخفتها وسهولتها وسلامتها»[1].

لم يفصح محمود شاكر عن رأيه في نشأة اللغة، ولكن الذي يظهر أنّه يرى نشأة اللغة نشأة إنسانية ذاتية بدأت بالتنفيس عن النفس، كانت في البدء أصوات تصاحبها إشارات للتعبير عن الأغراض ثم تطورت، والعربية لا تزال تحتفظ بالقيمة التعبيرية لتلك الأصوات حسب رؤية محمود شاكر.

والذي ينقص محمود شاكر تقديمه إطاراً نظرياً لما ذهب إليه يوضح فيه رأيه لنشأة اللغة وتصوره لمراحل تطورها، ولم يبيّن المقصود من الإنسان الأول، والحياة الفطرية الأولى، ولعله يعذر بأنه لم يكتب في هذه القضية إلا بضع مقالات وكان يعد قراءه بتقديم مؤلفٍ يستوعب فيها هذه القضية. ومما يلاحظ أنّ شاكراً جعل حروف الحلق من الحروف التي عبر بها الإنسان الأول في الحياة الفطرية الأولى واستعملها، وتنتمي كلها -عدا الهمزة- للمرحلة الرعوية عند حسن عباس تلك المرحلة التي جاءت بعد المرحلة الغابية والمرحلة الزراعية!

(١) مقالات محمود شاكر، ج٢، ص٢٧٢.

ثانياً : علاقة معنى الحرف بمخرجه وصفاته:

من المنطلقات التي اعتمد عليها بعض الباحثين عن معاني الحروف أثر مخرج الحرف وصفاته، وطريقة تكونه في الجهاز الصوتي في الوصول إلى المعاني، وإليك بعض النصوص الدالة على هذا المنطلق:

- محمد حسن جبل: «الأساس الثاني لتحديد معنى الحرف: هو هيأة تكونه في الجهاز الصوتي؛ فإن هيأة التكون هذه يشعر بها الإنسان عند التنبه لذلك، ويستطيع أن يُحس منها بمذاقٍ للحرف يُسهم مع الاستعمالات اللغوية له في تحديد معناه. وقد كان الخليل (ت ١٧٠ هـ) ومَن بعدَه من الأئمة يسمون تجربة نطق الحرف من أجل تحديد مخرجه: «ذَوْقا» و «تذوقا»[١].

- حسن عباس عند حديثه على طريقته في الوصول إلى معاني الحروف: «أقوم باستيحاء خصائص صوت كل حرف بتأمّل صداه في نفسي بعد تفخيمه، عودة به إلى طريقة النطق بصوته حين أبدعه العربي للتعبير عن معانيه»[٢].

- عاصم المصري: «كي نتحقق من معاني الحروف كان لا بد من منهجية، لتكون بمنزلة خطوط عريضة لمقدمة البحث، تتناول ما يلي: استخراج دلالة وهيئة صوت الحرف، وبيان إن كان الصوت ينتج حركة أم أنه هو الحركة، توضيح علاقة الصوت بمخارج الحروف من آلة النطق، وصف خاصية آلة النطق ودلالة أقسامه»[٣].

ويقول كذلك: «إن دراسة صوت الحرف هو المدخل الأساس لتقصي دلالة المعنى الحركي له»[٤].

(١) المعجم الاشتقاقي لألفاظ القرآن الكريم، ص٩.
(٢) خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص٤٣.
(٣) الأبجدية ودلالاتها: النظرية والتطبيق، المقدمة.
(٤) السابق، ص١٣.

- إياد الحصني: «معاني معظم هذه الحروف مأخوذة من طريقة لفظها»[1].
- محمود شاكر: «وأنا أريد بقولي: «معاني أصوات الحروف»، ما يستطيع أن يحتمله صوت الحرف -لا الحرف نفسهُ- من المعاني النفسية التي يمكن أن تنبض بها موجة اندفاعه من مخرجه من الحلق أو اللهاة أو الحنك أو الشفتين أو الخياشيم، وما يتصل بكل هذه من مقومات نعت الحرف المنطوق. وليست المعاني النفسية -أو العواطف أو الإحساس- هي كل ما يستطيع أن يحتمله صوت الحرف، بل هو يستطيع أن يحتمل أيضا صوراً عقلية معبرة عن الطبيعة وما فيها من المادة، وما يتصل بذلك من أحداثها أو حركاتها أو أصواتها أو أضوائها أو غير ذلك مما لا يمكن استقصاؤه إلَّا بعد طول الممارسة لوحي الطبيعة في فطرة الإنسان، وبعد مدارسة اللغة ومفرداتها على أصل دقيق من هذا الباب، والاحتفال في كل ذلك للتدبر والاستقصاء ومداورة اللسان على مخارج الحروف مع حسن التفطن للمعاني الأولية التي يمكن اعتمادها أصلاً لمعنى الصوت في حرف حرفٍ من حروف اللسان العربي»[2].

ثالثاً: تجاور الحروف وترتيبها في الكلمة مؤثر في المعنى:

من المنطلقات التي تبناها أولئك الدارسون تأثير الحروف في بعضها عند تجاورها في الكلمة، وكذلك أثر ترتيب الحرف في الكلمة على معناها، بمعنى أن للحرف معنى، وهذا المعنى يؤثر فيه شيئان: الأول: الحرف المجاور له في الكلمة، والآخر: ترتيبه في الكلمة، وهذه نصوص الباحثين في تقرير هذا المنطلق وتأكيده:

- عبدالله العلايلي: «المواد الست تجمعها وحدة معنوية هي الملحظ الوضعي الثابت، وإنما تختلف بالخصوصية فقط، وسبيل تعيينها بشيئين: موقع المادة من الدائرة، الاجتماع الحرفي في المادة.

(١) معاني الأحرف العربية، ص١٣.

(٢) جمهرة مقالات محمود شاكر، ج٢، ص ٧٠٨

أما الأول فنعني به أن المادة يختلف معناها على اختلاف الموقع من الدائرة، واعلم أن كل دائرة تجتمع في وحدة أخص تكون أكثر ظهوراً في المواد الثلاث من الوحدة العامة للثلاثي في مواده الست، فوحدة الدائرة الأولى تكون بملاحظة المعنى فيما يقوم فيه. ووحدة الدائرة الثانية تكون بملاحظة المتلبس بالمعنى، والوحدة العامة هي المعنى نفسه بعيدا عن العلائق الحسية والمعنوية، وعليه فالمادة الأولى من الدائرة الأولى تدل على الوحدة في أوضح صورها الحسية، والمادة الثانية تدل على ملابسات حسية، والمادة الثالثة تدل على ملابسات معنوية، والمادة الأولى من الدائرة الثانية تدل على وحدتها في جلاء ووضوح، والمادة الثانية تدل عليها مع انفعال ظاهر، والمادة الثالثة تدل عليها مع انفعال مستخفٍ، وأما الثاني وهو الاجتماع الحرفي في المادة فنعني به رد الثلاثي إلى الثنائي على الطريقة السابقة لمعرفة المعنى الأصل، ثم تحديد معنى الحرف لتحديد المعنى المجموع»[1]. فالعلايلي ينطلق إذن من فكرة ابن جني في الاشتقاق الكبير، فالمادة وما يتقلب منها تعود إلى معنى عام، ثم تختلف المعاني الخصوصية باختلاف ترتيب الحروف، وبمعاني الحروف نفسها، وترتيب الدوائر يكون على حسب «الأوفق للترتيب الهجائي»[2].

- عالم سبيط النيلي: «تتمّ قراءة ناتج المفردة بواسطة النظام التسلسلي للغة الموحّدة وخلاصته: إن كلّ صوتٍ يقوم ببناء حركته على الصوت السابق. فالموضوع ونتائجه يتغيّران كلّما اختلف التعاقب مع بقاء نفس الأصوات مثل: (ركش ـ شكر ـ كشر ـ شرك ...). ومثاله مثل رجلين يرسم أحدهما دوائر حمر والآخر نقاطاً بيضاً، ولا يعملان إلّا هذين العملين فقط. فإذا رسما على لوحٍ أزرق بهذا التسلسل (أي يرسم

(١) مقدمة لدرس لغة العرب، ص٣١٣

(٢) السابق.

أحدهما على ما رسم الآخر)، كان الناتج لوحاً أزرق عليه دوائرٌ حمرٌ منقطةٌ بأبيض. وإذا انعكس تسلسلها كان الناتج لوحاً أزرق عليه نقاطٌ بيضٌ فيها دوائرٌ حمرٌ! فالصوت اللاحق لا موضوع له سوى ما فعله الصوت السابق. أما الصوت الأوّل فهو منفتحٌ على كلّ المواضيع. فإذا أصبح عدد الأصوات ثلاثة فالنتائج تزداد عددياً وتصبح ستة احتمالات وهكذا[1].

ويلاحظ أن النيلي جعل الحرف الأول هو المؤسس للمعنى، والثاني والثالث مكملين له.

- محمد حسن جبل: «ما ذكرناه من معاني الحروف بأن حددنا لكل حرف ألفبائي معنى لغويّاً لا يعني أن التركيب مجمل المعنى اللغوي الكامل لكل حرف من حروفه بحيث يكون معنى التركيب هو مجموع معاني حروفه. كلا، فنحن لا نقول بهذا؛ ذلك أن الدراسة التطبيقية بيَّنتْ أن ترتيب موقع الحرف بين حروف التركيب له تأثير قوي في معناه المحصَّل في التركيب: فقد يبقى معنى الحرف كما هو، وقد يتأكد ويتقوى بما مجاوره، وقد يضعف معنى الحرف بتأثير معنى الحرف الذي يسبقه أو يليه في التركيب.»[2].

- حسن عباس: «بعد أن اهتدى العربي إلى أصوات حروفه ومعانيها، بقي على فطرته البدوية يتقمص الأشياء والأحداث لاستشفاف خصائصها الذاتية. وهكذا أخذ ينتقي الحروف التي تتلاءم إيحاءاتها الصوتية مع تلك الخصائص، ولكن وفق ترتيب معين يماثل تراكيب الأشياء، كما في كلمات (باب، بير، طبل)، أو يماثل حركات الأشياء، كما في (رفرف، زلزل، لحس، بحث)، ليتحول المدرج الصوتي بذلك، من أول الحلق

(١) اللغة الموحدة، ص٢١٣.

(٢) المعجم الاشتقاقي لألفاظ القرآن الكريم، ج١، ص٤٢.

داخلاً حتى آخر الفم في الشفتين خارجاً إلى حلبة رقص. وهكذا يتحول الصوت ذاته إلى راقص ينتقل برشيق (أقدامه) على مخارج الحروف، إلى الأمام أو الوراء، إلى فوق أو تحت، وإلى اليمين أو ذات اليسار، ليصور الصوت بذلك الأشياء والأحداث بحركات إيمائية تمثيلية مسموعة غير منظورة»[1].

ويقول: «وبمقارنة معاني المصادر التي تبدأ بحرف ما مع معاني المصادر التي تنتهي به، تبين لي أن تأثير كثير من الحروف في معاني المصادر يختلف بحسب مواقعه منها، وذلك لتغير تمثيلها الإيمائي أو إيحائها الصوتي في الموقعين. مما يقطع بأن العربي لم يعط أصوات حروفه قيماً رمزية محددة، ولا معاني مطلقة أيضاً، وإنما ترك ذلك لإيحاءاتها الصوتية، ولطريقة النطق بها أنى كانت مواقعها من الكلمة. وهذا يتطلب حساسية سمع ورهافة في الشعور، ونباهة وانتباها دائبين[2].

- عاصم المصري: «ترتيب حركة الحروف وفق تسلسل نشأتها يفيد دلالة التتابع الإيجابي، كورود الجيم قبل الدال؛ فتسلسل (ج-د) فيه إيجابية، بينما في (د-ج) صار المعنى مغايرا لطبيعة التكوين والنشأة... وهذا ما نلاحظه في سلوك حرف الفاء، إذ هو حرف فصل وتفريق، فمضمون حركته سلبي، أما إذا التقى مع حركة سلبية أخرى تحول إيجاباً، وإلا جعل الحركة الإيجابية سالبة»[3].

- محمود شاكر: «اعلم أن لكل حرف معنى، وأن اشتراك الحروف ذوات المعاني في الكلمة الواحدة يسقط بعضها معاني بعض، ومصطفى من المعنى الأصلي ما يتمثل به في الحروف المجتمعة معنى آخر يجتاز

(١) خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص٣٨.
(٢) السابق، ص٤٤.
(٣) الأبجدية ودلالاتها: النظرية والتطبيق، ٧٤.

عليهـا أو يسـتمد منهـا، وعـلى ذلـك فعليـك أن تنظـر إلى هـذه الأحـرف عـلى الأصـل الـذي نحـاول بيانـه لـك»[1].

وهـذان المنطلقـان: علاقـة معنـى الحـرف بمخرجـه وصفاتـه، وأثـر تجـاور الحـروف وترتيبهـا في الكلمـة عـلى المعنـى نرجئهـا، ونتحـدث عنهـا في مبحـث المنهجيـة، فالحقيقـة أنهـا مـن المنطلقـات التـي اعتمدوهـا، ثـم جعلوهمـا مـن طرائـق الوصـول للمعنـى كـما سـيأتي.

رابعاً: الدراسات السابقة والتأصيل:

هـذا المنطلـق يُعنـى بالكشـف عـن الدراسـات السـابقة، والآراء المتقدمـة التـي انطلـق منهـا أولئـك الدراسـون، أو حاولـوا تأصيـل دراسـاتهم بالاعتـماد عليهـا، ولعلهـا كانـت سـببا في تبنـي دلالـة الحـروف الأبجديـة عـلى المعـاني، والتحفيـز للبحث عـن تلـك المعـاني وتحديدهـا.

والدارسـون -كـما ذكرنا سـابقا- ليسـوا سـواء في هاتـه المنطلقات، وكذلـك في هذا المنطلـق، فالعلايـلي يعتمـد على فكر ابن جنـي، يقول مقـدم الكتاب إسـماعيل مظهر: «إذا أردت أن تعـرف ماهيـة هـذا الكتـاب فاعـرف أنـه تحقيـق عملي قويـم لمذهب الإمـام ابن جنـي القائـل بأن كل مـا قيس عـلى كلام العرب فهـو من كلام العـرب»[2].

كانت آراء ابن جني حاضرة في تلك الدراسات؛ إذ اعتمدوا عليها في بناء نظرياتهم، أو في دلالتهم على أن للحروف معاني، فحسن عباس يؤكد في غير موضع أنّه يعتمد على كلام ابن جني في علاقة اللفظ بالمعنى يقول: «اتبعت ... نهج من قال بفطرية اللغة العربية ممن أجمعوا صراحة أو ضمناً على أن معنى الحرف العربي هو (صدى صوته في الوجدان، أو النفس). وكان ابن جني أبلغ من عبر عن هذه النظرية اللغوية الفطرية بمقولته الشهيرة: سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المراد»[3].

(١) جمهرة مقالات محمود شاكر، ج ٢، ص ٧٢٩.

(٢) مقدمة لدرس لغة العرب، ص«ن».

(٣) خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص٦.

وقد ذكر أن ابن جني أخطأ في منهجية الوصول إلى معاني الحروف؛ إذ انطلق ابن جني من معاني الألفاظ، وكان الأجدر الاتجاه مباشرة إلى الحرف وتلمس معناه من صداه، وما يحدثه في وجدانه، يقول: «لقد لجأ ابن جني إلى استخلاص معاني الحروف العربية من معاني الألفاظ، بدلاً من الاتجاه مباشرة إلى تأمل صدى أصواتها منفردة في وجدانه. ولقد استهدى في ذلك تارة بقاعدته الذكية: (تصاقب الألفاظ، لتصاقب المعاني). أي تقارب الأصوات لتقارب المعاني. كما استهدى تارة أخرى بقاعدته الأذكى (سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المراد).. ومع ذلك لم ينج مع هاتين القاعدتين المستحدثتين من عمليات الاستبطان من التناقض حيناً بمعرض الكشف عن خصائص الحرف الواحد، ولا من الخطأ حيناً آخر في تعيين خصائص بعض الحروف ومعانيها... ولو أن ابن جني تأمل صدى أصوات الحروف في نفسه لمعرفة خصائصها، لما وقع في هذه الأخطاء لمجرد تلك المصادفات من تقارب المعاني لتقارب الألفاظ في بعض الأحيان[1].

وأما الدراسات الحديثة فقد تأثر حسن عباس بدراسة زكي الأرسوزي[2]، ودراسة عبدالله العلايلي، وقد صدّر عباس كل حرف يتحدث عنه بما ذكره الأرسوزي والعلايلي من معانٍ، فتارة يقرها ويؤكدها، وتارة يخطئها ولا يسلم بها.

وقد أبان عباس عن منهجها، وعن خلافه معهما كما فعل مع ابن جني، يقول عن العلايلي: «لقد حدد العلايلي معاني حروف الجدول الهجائي (بما تسمح به النصوص) دون أن يعتمد صدى أصواتها في نفسه. ولذلك غابت عن معاني حروف جدوله بصورة عامة خصائص أصواتها الحسية والشعورية ... ونحن لا نتهم العلايلي بالعجز عن استبطان أصوات الحروف... ولعل العلايلي

(١) السابق، ص ٣٩-٤٠.

(٢) في كتابه العبقرية العربية في لسانها، لم ندخل دراسة الأرسوزي في المادة المدروسة لأسباب منها: لم يتحدث عن معاني الحروف كلها، ولم يقدم هذه المسألة بدراسة نظرية تكشف عن شيء من منهجه، ولم يخصص لها فصلاً ولا حتى مبحثاً مستقلاً، وإنما جاء ذكر بعض المعاني عرضاً عند حديثه عن معاني بعض الألفاظ.

قد رأى أن اعتماد النصوص المحفوظة في استخراج معاني الحروف هو أقل شططاً ومخاطرة وأسلم عاقبة من استخراج معانيها عن طريق صدى أصواتها في النفس. ولكن نهجه هذا هو أقل دقة وأكثر شططاً كما سنرى في دراسة الحروف»[1].

وأما الأرسوزي فقد أصاب المنهجية الصحيحة من وجهة نظر عباس في الوصول إلى معاني الحروف، يقول حسن عباس: «كان الأرسوزي هو الوحيد الذي اعتمد قاعدة صدى الأصوات في الوجدان لاستيحاء معاني الحروف. ولكنه وقف جل اهتمامه على استيحاء معاني الألفاظ العربية من صدى جملها الصوتية في نفسه، فلم يولِ الحروف العربية إلا القليل من عنايته منصرفاً إلى المقاطع الثنائية، وذلك على العكس مما فعل العلايلي الذي بدأ بالحروف العربية، ومنها انتقل إلى المقاطع... ولذلك قد اقتصر الأرسوزي على تحديد خصائص أحد عشر حرفاً فقط، وباقتضاب شديد»[2].

وقد كشف عاصم المصري عن الدراسات، والنصوص التي حفزته «إلى التفكر في المخزون والموروث من كلام العرب، وكشف الستر عن معاني حروف الأبجدية»[3]

وهي دراسة النيلي في اللغة الموحدة، ونص لأحمد داود في كتاب تاريخ سوريا الحضاري القديم شبه فيه الحروف العربية بالجينات الوراثية والنظام الكوني، ونص آخر لعبدالله العلايلي شبه فيه العربية بالعربة مركب حركي حيوي قاعدته التفاعل والضرب والجمع الهندسي، وكذلك كتابات ابن عربي في الفتوحات المكية ومحاولة فك رموزها الصوفية[4].

ولم يقتصر عاصم المصري على أولئك الذين صرح بأنهم المحفز الأول في تبني هذا الرأي، بل ذكر أنه سيعتمد على كل الدراسات التي تناولت معاني الحروف،

(١) خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص٤١.
(٢) السابق.
(٣) الأبجدية ودلالاتها، صxix من المقدمة.
(٤) السابق.

وحاولت الكشف عنها، يقول: «سنعمد عند تناولنا معنى كل حرف من حروف الأبجدية إلى الأخذ بما توصل إليه هو حسن عباس- أو غيره»[1].

وكما تحدث حسن عباس عن ابن جني والعلايلي الأرسوزي، وأوضح الفرق بينه وبينهم في منهجية الكشف عن معاني الحروف تحدث عاصم المصري عن حسن عباس موضحا الخلاف المنهجي بينهما، يقول عاصم المصري: «بدأ عباس في استنطاق الحواس للإفصاح عن دلالة الحرف، نهج منهجاً استقصائياً مفاعلاً الحواس ومفسراً لها في معرفة كنه العلاقة بين الحاس والمحسوس ليصير نطاق تواصل للكلم، أما في بحثنا هذا استنطقنا دلالة معنى الحرف من خلال تناقض مسمى حروف اسمه، فكأنما بدأنا من حيث انتهى، أو من حيث نضجت الحواس لتكوّن الفكر المدرِك القادر على تنظيم ليس عقله وإنما وعي الترابط بين العقل والحواس»[2].

وأما محمود شاكر فقد ذكر أن القدماء لم يتطرقوا إلى هذه المسألة إلا عرضاً وإلماحاً يقول في مفتتح مقالته التي كتبها في ما أسماه بـ»علم معاني أصوات الحروف»:[3]

«هذا بابٌ من أصول اللغة لم يَرِم إليه أوائلنا -رضي الله عنهم- إلَّا إشارة مبهمة ولمحة خافية أو نبذاً مهضوماً، فهم لم يجردوا لهُ أنظارهم، ولم يحتفلوا لتقصيهِ وتتبعه واستظهار طرائفه، وهم حين أشاروا أو ألمحوا أو نبذوا، لم يلموا إلَّا بأطرافه وحدوده، فلم يغمضوا في قلبه وسره ومعدنه ليستنبطوا منهُ أسراره المستكنة تحت ألفاظ العربية»[4].

(١) السابق، ص٥٧.
(٢) السابق.
(٣) جمهرة مقالات محمود شاكر، ج٢، ص ٧٠٨.
(٤) السابق، ج٢، ص ٧٠٨.

وبعد فيمكن تسجيل الملاحظات الآتية:

- لم يُعن الباحثون كثيراً بمحاولة تأصيل دراساتهم، والبحث عن شرعية تراثية لها كعادة كثير من المحدثين عند طرح رؤى جديدة، فالناظر في تلك الدراسات يجد غياباً للدراسة النظرية التاريخية لهذه القضية.

- كان لابن جني حضور عند بعض الدارسين كحسن عباس وهو أكثرهم ويرى أنّ نظريته تعتمد كلام ابن جني منطلقاً لها، يأتي بعده عاصم المصري الذي استشهد بشيء من كلام ابن جني، ثم العلايلي ومحمد حسن جبل في قضايا متعلقة تعلقاً غير مباشر بهذه القضية كالاشتقاق، والحقيقة أنّ ابن جني له كلام في الخصائص يقترب في مجمله من هذه الدراسات في الظاهر، وبالأخص في بابي: تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني،[1] وإمساس الألفاظ أشباه المعاني[2]، لكن من يتأمله يجده غير متوافق وتلك الدراسات، ولو افترضنا أنّه قريب فكان المنهج العلمي يحتم على حسن عباس والمصري أن ينظرا في كلام ابن جني كلّه في الخصائص وغيره، فابن جني يتبنى الاشتقاق الأكبر وهو يختلف ورؤية المحدثين في أثر رتبة الحرف في المعنى، وقد رد عليه محمد حسن جبل وناقش تلك المسألة في مقدمة كتابه الاشتقاق المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، ولابن جني -كما هو معلوم- كتاب في الحروف، وهو سر صناعة الحروف تحدث فيه عن الحروف العربية وفروعها المستحسنة وغير المستحسنة، وعن مخارجها وصفاتها، والفرق بين الحروف والحركات، وكل ما يتعلق بالحروف عند التركيب من صحة وإعلال، وقلب وأصالة وزيادة، وغيرها من القضايا التي تتعلق بالحروف[3] ولم يذكر معاني تلك الحروف ولم يشر إلى شيء من ذلك، ولو

(١) تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، ج٢/ ١٤٥.
(٢) ج٢/ ١٥٢.
(٣) تحقيق: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى.

كان ابن جني يرى ذاك الرأي لكان هذا موضعهن بل تحدث ابن جني عن مذهب العرب في مزج الحروف بعضها ببعض، أي تركيبها في الكلمات وما يتآلف منها ويتنافر، فتحدث عن الخفة والثقل من الناحية الصوتية، ولم يرجع ذلك إلى أسباب معنوية كما فعل عاصم المصري الذي أضاف إلى الثقل، وصعوبة النطق سبباً آخر وهو اختلاف المعاني وتنافرها، يقول: «ثمة ظاهرة تستوجب التوقف عندها، وهي أن الحروف التي تتجاور مخارجها لا تلتقي ولا تتجاور في أي تسلسل: في تجويف الفم: الكاف والطاء، والطاء والظاء، والظاء والصاد... يرجع إلى عدم قبول الحروف للتجانس والتلاقي إما للصعوبة في النطق أو للتخالف والاختلاف في مدلول معاني الحروف المطلوب تأليف الكلام منها: الهاء والعين، العين والحاء، والغين والعين، والقاف والغين والخاء والحاء والقاف»[1].

- لم يحاول أحد من الباحثين الاستشهاد أو الاعتماد على قول عباد بن سليمان الصيمري المشهور في الدلالة الذاتية للألفاظ، وهو قول قريب من نظرتهم لمعاني الحروف قبل التركيب، فعباد يرى أنّ للألفاظ دلالة ذاتية، ومناسبة طبيعية، يقول السيوطي: «نقل أهل أصول الفقه عن عباد بن سليمان الصيمري من المعتزلة أنه ذهب إلى أنَّ بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع قال: وإلا لكان تخصيص الاسم المُعيّن بالمسمَّى المُعين ترجيحاً من غير مرجّح. وكان بعض من يرى رأيه يقول: إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها فسئل ما مسمَّى (اذغاغ) وهو بالفارسية الحجر فقال: أجد فيه يبساً شديداً وأراه الحجر»[2].

وهذا القول قد أنكره العلماء، وبينوا شططه عن واقع اللغة، وعن حال المتكلمين «لو ثبتَ ما قالَه لاهْتَدَى كلُّ إنسان إلى كل لغةٍ ولما صحَّ وضعُ

(١) السابق، ص١٢٢.

(٢) المزهر في علوم اللغة، تحقيق محمد أبو الفضل وآخرون، دار الجيل، بيروت، ج١/ ٤٧.

اللفظِ للضدين كالقَرْءِ للحيض والطهر والجَوْن للأَبيض والأسود وأجابوا عن دليله بأنَّ التخصيص بإرادة الواضع المختار خصوصاً إذا قلنا: الواضعُ هو الله تعالى فإن ذلك كتخصيصه وجود العالَم بوقت دون وقت»[1].

لعلهم يدركون أن ثمة فرقاً بين قولهم بدلالة الحروف على المعاني، والقول بالعلاقة الطبيعية بين اللفظ والمعنى، فالقول الثاني: ينطلق من دلالة الكلمة، والأول من دلالة الحرف، ولذلك لم يعهد عن أصحاب العلاقة الطبيعية تحديد معاني الحروف، وقد أصاب محمود شاكر في قوله: إنّ هذه القضية لم تحَظ بنظر المتقدمين، فهذا القول لم يكن له سند تاريخي من تراث الأمة العربية، ولكن كان الأسلم منهجياً مناقشة القول بالعلاقة الطبيعية بين اللفظ والمعنى، فالنظر في مظانّ تاريخ العلم والمعرفة من أولويات البحث العلمي، وقد نوقش عباد بن سليمان الصيمري ورُد عليه بردود هي في مجملها صالحة للرد على هذه المشاريع، ومسألة الصلة الطبيعية بين اللفظ والمعنى مسألة قديمة، ناقشها الفلاسفة، فكان سقراط يتبنى هذا القول، وأرسطو يتبنى الرأي القائل بأن الصلة بين الألفاظ والمعاني اصطلاحية عرفية[2].

- ولا يعني ذلك أنّ الدراسات السابقة لم تكن منطلقاً عند بعض أولئك الدارسين، فقد رأينا مثلا اعتماد حسن عباس على ابن جني والأرسوزي والعلايلي، وإفادة عاصم المصري من ابن جني وعالم سبيط النيلي وحسن عباس ومحمد العنبر.

بهذه الملحوظات وما تقدم من حديث عن وصف الدراسات السابقة نكون قد وقفنا على صورة الدراسات السابقة، ومدى حضورها في تلك الدراسات.

(١) السابق.

(٢) إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٧٦، ص٦٣.

المبحث الثالث: المنهجيات:

في هذا المبحث نسلط الضوء على المنهجية التي اتبعها الباحثون في الكشف عن معاني الحروف، والسبيل الذي ساروا عليه من أجل التحقق من المعاني، والطريقة التي عرضوا بها المعاني، وهم كما ذكرنا مراراً مختلفون في المعاني، والمنطلقات، وكذلك في المنهجية، وسنعرض لمنهج كل باحث على حدة، وأكثرهم قد صرح بطريقته في استنباط المعاني، ومنهجيته في اعتمادها:

- **عبدالله العلايلي**: لم يتحدث عن منهجيته في الوصول إلى معاني الحروف إلا باقتضاب شديد، يقول: «نتكلم على تحديد معاني حروف الجدول بما تسمح به النصوص المحفوظة»[1]، فقد اعتمد إذن على معاني الألفاظ، ودور الحروف في تشكيل معانيها.

- **عالم سبيط النيلي**: أجاب عالم سبيط النيلي عن السؤال الآتي: «من أين جئت بمعاني الحروف؟»[2].

بقوله: «إنّه عملٌ معقّدٌ يصعب شرحه... وإذا احتجتم إلى بيانه في يومٍ ما فسأوضّح ذلك»[3].

ومع إقراره بصعوبة الوصول إلى المعاني، وهو إقرار تكرر عند غير باحث كما سيأتي، فهذا عجبٌ؛ إذ كيف يكتفي بالقول بأنه عملٌ صعبٌ، ويترك أمر توضيح المنهجية، وصعوبة العمل لا تعفيه من بيان الطريقة، وهذا شأن العلم، والأعجب منه تأكيده أنه ليس من الضروري معرفة كيف استنبط معاني الحروف وتوصل إليها، يقول: «ليس من الضروري الحديث عن الطريقة التي تمَّ بها كشف معاني

(١) مقدمة لدرس لغة العرب، ص٣١٣.
(٢) اللغة الموحدة، ص٥٣٤.
(٣) السابق.

الحروف؛ لأن ذلك سيكون أشبه بالمذكّرات منه بالعلم»[1]، ثم ذكر بعد ذلك شيئاً من طريقته، يقول: «وباختصارٍ كانت الطريقة مشابهةٌ وإلى حدٍّ بعيدٍ لاكتشاف اللغات القديمة. حيث تمَّ كشف حرفٍ واحدٍ وبالمقارنات المتعدّدة تمَّ كشف الحرف الثاني وبالضرب بثالثٍ مراتٍ كثيرةٍ جداً تمَّ تقدير أو تخمين ثالثٍ ثمَّ أعيد تعديل تعريف معاني الثلاثة مراتٍ عديدةٍ وبالاستعانة بأشياءٍ كثيرةٍ لا مجال لذكرها. والعمل ليس متشابهاً لجميع الحروف فبعضها كان واضحاً لدرجة أنه يكفي في كشفه ملاحظة دخوله في مائة مفردةٍ وبأسبوعين مثلاً وبعضها كان يبقى خافياً شهوراً عديدةً في حين احتاج الصوت الأول (الألف) الى عدّة أعوام»[2].

وأما طريقته في عرض معاني الحروف فتأتي في مراحل أربعة:

المرحلة الأولى: تعريف الحركة: فالصوت عنده حركة فيزيائية تحدث في الهواء، فالحركة اللحظية الحادثة من آلة النطق هي عبارة عن صورةٍ شبحية متلاشيةٍ ترافقها صورةٌ صوتيةٌ خاصةٌ بها، وعليه نقل هذه الحركة بصورتها الشبحية إلى القراء، وقد ذكر النيلي المشاكل التي تكتنف هذه المرحلة، فـ«إننا نضطرّ للتعبير عن حركة الصوت بكلامٍ مؤلّفٍ من ألفاظٍ مؤلفة بدورها من أصواتٍ أخرى. فهذه الأصوات تقوم بتشويه الصوت الذي نريد تعريف حركته. غير أنّه قد تمّ التغلّب على هذه المشكلة عن طريق انتقاء لفظٍ أوليٍّ في تعريف حركة الصوت يتضمّن الأصوات التي لها علاقة حركية داخلية مع الصوت المعرّف بحيث لا تقوم بتشويه هذه الحركة. وهذا اللفظ هو دوماً على زنة (انفعال أو تفاعل أو تفعُّل) بحسب حركة الأصوات»[3].

(١) السابق، ص١٩٤.

(٢) السابق، ص١٩٤.

(٣) السابق، ص٦٣١.

المرحلة الثانية: رسم الحركة: «من الواضح أنّ رسم الصور الشبحية غير ممكن عملياً. والبديل المناسب هو تمثيل حركة هذه الصورة بواسطة نموذج موحّد. ومن الممكن وضع نماذج كثيرة بحيث يكون لكلّ صوتٍ نموذج مختلف يناسبه، ولكن هذه الطريقة إذا كانت توضّح حركة الصوت بصورةٍ أفضل فإنّها من ناحيةٍ أخرى تعمل على إرباك القارئ إذ تختلط عليه الأصوات في نهاية الأمر. النموذج الموحّد هو عبارة عن دائرة تمثّل موضوعاً، ولمّا كان كلّ شيء في الوجود متحركاً أو هو عبارة عن حركة معيّنة فقد وضعنا في الدائرة رمزاً هو الحرف (ح) ليشير إلى أنها حركة»[1].

المرحلة الثالثة: الأمثال: «كانت الأمثال عاملاً مساعداً للتنويه عن طبيعة الحركة الصوتية، وهذه الأمثال هي أفعالٌ طبيعيةٌ وإنسانيةٌ عامّةٌ لا علاقة لها بالأصوات، لكنها تقع بحركةٍ هي نفس حركة الأصوات أو مشابهة لها شبهاً كبيراً»[2].

المرحلة الرابعة: التسلسلات: «وهو الأسلوب الرابع لتوضيح حركة الصوت. وذلك من خلال ملاحظة ما يفعله بالتناوب مع الأصوات الأخرى. فتنكشف هنا الحركة العامة للتسلسل وينتهي الإنجاز الفعلي للنظرية الموحدة عند هذا الحد»[3]. والمقصود بالتسلسلات معنى الحرف مع ضمه لغيره في الكلمة، وما يحدثه الحرف من تأثير في المعنى، والتسلسلات هذه لا تقتصر على العربية، فللصوت معنى واحد في اللغات كلها عنده.

- **محمد حسن جبل:** اعتمد في سبيل استخلاص معاني الحروف الألفبائية العربية على أساسين اثنين كما صرح بذلك:

الأول: «هو معاني كلمات التراكيب المكونة من الحروف المراد تحديد معناها، سواء استغرق ذلك التكوين كلّ أحرف التركيب، أو غلب

(١) السابق، ص٦٣٣.
(٢) السابق، ص٦٣٤.
(٣) السابق، ص٦٣٦.

عليها، بأن يتكون التركيب من حرفين مع حرف علة... واستنباط المعاني اللغوية للحروف **الألفبائية** أخذاً من التراكيب المكونة من حرف مكرر هو منهج ليس فيه خروج عن العِلْمية، لولا قِلَّة هذا النوع من التراكيب، وإنما شرطه إحكام الاستنباط. أما التراكيب التي يغلب في بنائها حرف معين فحاجتها إلى إحكام الاستنباط أشد»[1].

الثاني: «هو هيئة تكونه في الجهاز الصوتي؛ فإن هيئة التكون هذه يشعر بها الإنسان عند التنبه لذلك، ويستطيع أن يُحس منها بمذاقٍ للحرف يُسهم مع الاستعمالات اللغوية له في تحديد معناه... ولا يخفى أن هذا الأساس الثاني الصوتي ليس في قوة الأساس الأول الاستعمالي»[2].

وفي الأساس الأول الأساس الاستعمالي حدد المقصود بالاستعمال الذي سيعتمده في استخلاص المعاني، وهو استعمال العرب الأوائل، يقول: «ولا يخفى أن استعمال العربي للفظ في معنى مُعَيّن هو الحجة- في هذا؛ لأن العربي هو أهل اللغة، وهو هكذا عبَّر بها عما في نفسه. وشأن العرب في هذا شأن أهل كل لغة. وعلماء اللغة القدماء عايشوا العرب، وعرفوا ما يقصدون بكلامهم: مفرداته وعباراته، فرصدوا ذلك في المعاجم. ودراسة علماء اللغة المتأخرين للاستعمالات العربية وتفسيراتها تتيح تحرير معانيها عند الحاجة إلى ذلك»[3].

- **حسن عباس**: تحدث عن منهجه في الوصول إلى معاني الحروف العربية، القائم على «الاستبطان الشعوري لاستيحاء الخصائص الصوتية لكل حرف»[4]. والمقصود بالاستبطان»استخدام الشعور كملكة وعي لإدراك

(١) المعجم الاشتقاقي المؤصل، ج١/ ٢٥.
(٢) السابق.
(٣) السابق، ج١/ ١٠.
(٤) خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص٤٣.

هـذه الحـالات الشـعورية والأحاسـيس التـي تعتمـل في نفوسـنا... إن استيحاء معـاني الحـروف مـن أصواتهـا، إنـما يتـم عـن طريـق الاستبطان، وذلـك بانعـكاس شـعورنا عـلى المشـاعر والأحاسـيس التي تثيرهـا أصوات الحـروف في نفوسـنا»[1].

هذا وللمنهج مرحلتان:

المرحلـة الأولى: يقـول فيهـا: «أقـوم باسـتيحاء خصائـص صـوت كل حـرف بتأمـلّ صـداه في نفـسي بعـد تفخيمـه، عـودة بـه إلى طريقـة النطـق بصوتـه حـين أبدعـه العـربي للتعبـير عـن معانيـه. وذلـك بـأن أسـلط عليـه أحاسـيس الحـواس الخمـس- ومختلـف المشـاعر الإنسـانية، فأتحـرى مختلـف خصائصـه الحسـية، ثـم الشـعورية.

فـإذا وجـدت في صوتـه مـا يوحـي بإحسـاس لمـسي، بحثـت عـن شـتى لمسـياته، مـن ليونـة أو صلابـة أو خشـونة أو بـرودة أو حـرارة... كـما أننـي أتبـع هـذا النهـج بالـذات لاسـتخلاص موحياتـه الذوقيـة والشـمية والبصريـة والسـمعية والشـعورية. فـإذا اقتـصرت إيحـاءات صـوت حـرف مـا عـلى اللمـسي فقـط، صنفتـه في فئـة الحـروف اللمسـية، وإذا تجـاوزت هـذه الإيحـاءات حاسـة اللمـس فوقفـت عنـد الحـدود الذوقيـة أو الشـمية أو البصريـة أو السـمعية، صنفتـه في الطبقـة العليـا التـي تنتهـي عندهـا إيحاءاتـه صعـوداً»[2].

وهـذا مـا يتميـز بـه منهـج حسـن عبـاس، يقـول: «وإذن، فـإن هـذا المنهـج يتميـز عـن سـواه مـن المناهـج بالكشـف عـن الرابطـة الفطريـة بـين أصوات الحـروف العربيـة وبـين الحـواس الخمـس والمشـاعر الإنسـانية»[3].

(١) السابق، ص٣٩.
(٢) السابق، ص٤٣.
(٣) السابق.

وبجانب المنهج الإيحائي هناك المنهج الموازي «التمثيلي والإيمائي «وقد اكتشفه مصادفة يقول: «أما المنهج الموازي الذي اعتمدته أيضاً في استخراج معاني الحروف من طريقة النطق بها إيماء وتمثيلاً، فإني لم أهتد إليه إلا مصادفة بعد إنجاز هذه الدراسة للمرة الأولى. وذلك عندما أخذت في مراجعة معاني المصادر التي تبدأ بحرف (الفاء). فلقد تبين لي أن تلك المعاني تتجافى مع موحيات الضعف والوهن في صوت الفاء، خلافاً لما نهج عليه العربي في تحديد معاني حروفه وفقاً لصدى أصواتها في النفس»[1].

المرحلة الثانية: يقول فيها: «وبعد أن أحدد الخصائص الصوتية والإيمائية التمثيلية لكل حرف على وجه ما مر معنا في المرحلة الأولى، أقوم باستخراج المصادر التي تبدأ بكل حرف مع معانيها، أقوياً كان الحرف أم ضعيفاً. أما الحروف التي في أصواتها رقة وشاعرية، فلقد نهجت على استخراج المصادر التي تنتهي بها أيضاً، حيث تكون هنا أوحى بمعانيها، كما عمدت إلى استخراج معاني المصادر التي تنتهي ببعض الحروف القوية وكذلك المصادر التي تتوسطها أحرف (ظ-ص-ض-خ-ح-هـ-ع)، وذلك للتثبت من مدى قوة شخصياتها وبمقارنة معاني المصادر التي تبدأ بحرف ما مع معاني المصادر التي تنتهي به، تبين لي أن تأثير كثير من الحروف في معاني المصادر يختلف بحسب مواقعه منها، وذلك لتغير تمثيلها الإيمائي أو إيحائها الصوتي في الموقعين. مما يقطع بأن العربي لم يعط أصوات حروفه قيماً رمزية محددة، ولا معاني مطلقة أيضاً، وإنما ترك ذلك لإيحاءاتها الصوتية، ولطريقة النطق بها أنى كانت مواقعها من الكلمة. وهذا يتطلب حساسية سمع ورهافة في الشعور، ونباهة وانتباها دائبين»[2].

(١) السابق.

(٢) السابق، ص٤٣.

وأما منهجه في المادة التي يستقي منها المعاني فقد حددها بـ« الأفعال أو الأسماء العربية القحّة، مما ليس مولداً بعد عصر الرواية والتدوين، أو معرّباً عن لفظ أجنبي، أو دخيلاً دون تعريب أو عامياً أو اسماً لحشرة أو نباتاً ليس وصفا لفعل أو اسم. ولقد اخترت من هذه الأفعال والأسماء، ما قدّرت أنه هو الألصق جذوراً بالأرومة الأم. كما اخترت من مختلف معاني المصدر الذي وقع عليه الخيار المعنى الحسي لقربه من أصالة اللفظة العربية وفطريتها، مبتعداً ما أمكنني عن المعاني المجازية وإن كانت هي الشائعة الاستعمال حالياً»[1].

وبعد استخراج المصادر التي في المرحلة الثانية يقوم بـ«بتصنيفها في جداول خاصة تجمع بين معانيها رابطة حسية أو معنوية، وذلك للتثبت من أمور ثلاثة:

أ- ما مدى تطابق الخصائص الصوتية والإيمائية للحروف مع معاني المصادر المستخرجة؟

ب- ما نسبة هذا التطابق؟ وذلك لمعرفة مدى قوة شخصية كل حرف.

ج- ما مدى التزام الحرف موضوع الدراسة بطبقته الحسية؟ وإذا تجاوزها في بعض المصادر فما الأسباب؟

وهكذا فإن مطابقة الخصائص الصوتية والإيمائية للحروف العربية على معاني جميع المصادر التي تبدأ أو تنتهي بها، إنما هي ميزة موضوعية لمنهجي هذا، لم يجشم أحد من الباحثين نفسه مثل هذا العناء»[2].

(١) السابق، ص٤٤.

(٢) السابق، ص٤٥.

- **عاصم المصري**: حدد منهجيته في مقدمته تحت عنوان المنهج الاستدلالي(١)، وهي تتلخص فيما يأتي:

اعتمدنا المنهج الاستدلالي لمخارج الحروف ودلالة مسمياتها واقتراناتها وتبدل وتغيير مواقعها، باستنطاق مدلول ما تبطن وما تضمر من خلال ما تلفظ أو تستوعب وفقاً لما يلي:

١. المسمى الأبجدي المتعارف عليه للحرف: مخرج الحرف وأهميته، ومعاينة توجهه، نسبته وتناسبه مع المخارج الأخرى، دلالة اسم الحرف من خلال حروفه.

٢. الاقتران الثنائي الذي يبتدئ به الحرف بصفته متبوعاً: اقترانات الحرف الشائعة الاستخدام والمتعارف عليها والمتواترة، الاستعانة بالتنزيل وديوان العرب الشعري وما شاع من معنى استخدامي.

٣. معايرة التغيير في التوجه: تغيير حركة الحرف البادئ (كالفتحة والضمة والكسرة والسكون)، معاينة تغيير المعنى، بملاحقة واستقصاء تغيير الحرف اللاحق بإدخال حرف ثالث، ابتداءً، وتوسطاً، وانتهاءً.

٤. الاقتران الثنائي للحرف بصفته تابعا: عكس نسق التسلسلات المستخدمة سابقاً، معاينة توجه المعنى والدلالة للحرف وفقاً لما هو متعارف عليه، تقليب توجه اللفظ ظاهراً وباطناً، والاستعانة بدلالة التبدل في الحركة كرابط بنائي، حيث الضمة -بخاصية التموضع المكاني- تفيد الظاهر، بينما الكسرة، التي هي حركة زمانية، تفيد الباطن، الاستعانة بالتنزيل وديوان العرب الشعري وما شاع من معنى استخدامي، معايرة التغيير في التوجه.

(١) الأبجدية ودلالاتها، ص xxiv بتصرف.

٥. معايرة التغيير في المعنى الدلالي: إدخال حرف ثالث على التسلسل الثنائي ابتداءً توسطاً وانتهاءً لاستخلاص النتيجة بمعيار العقل، والوصول إلى قيمة العنصر الفاعل ودلالته الحركية، من حيث تأثيره وتأثره، استخدام المؤشرات الدلالية المستخلصة من خلال معايرة ومبادلة الحروف لمواقعها، للاستعانة بما تفضي إليه في ميزان حركة ودلالة حروف أخرى، وتسلسلات ذات صلة، الاسترشاد بنتيجة ما نتوصل إليه من معنى حركي عند معالجة كل حرف من حروف الأبجدية، من خلال اقترانه بحروف أخرى، لكي نصل ونوصل ما يجمع أسرة أبجديتنا من رباط معززين الثوابت مبينين التفاوت والتنافر، الاستعانة بحرف الوصل (اللام)، والتفريق (الفاء) والتكرار (الراء) لتمييز حركة واقترانات الحروف؛ لأن النسيج اللغوي لا يتم إلا بألف التأليف، أي باللام وبحركة الفصل الفاء، وبما يوضحه التكرار بالراء، هذا ما سنعمد إلى معالجته في باب كل حرف لتأكيد انسجام المعنى الحركي بدلالة هذ المنهجية.

- إياد الحصني: ذكر القواعد والأسس التي اعتمدها، وهي[1]:

١. الحرف يدل على معنى معين محدد.

٢. معاني معظم هذه الحروف مأخوذ من طريقة لفظها.

٣. كل حرف ضمن الكلمة الواحدة يدل على معنى معين محدد وبجمع معاني الأحرف يكون هناك وصف دقيق للشيء الذي تدل عليه هذه الكلمة بحيث يمكن معرفة هذا الشيء من معاني الأحرف حتى بدون معرفة المعنى مسبقاً.

(١) معاني الأحرف العربية، ص١٢ وما بعدها.

٤. حرف الفاء يدل على معنى الفراغ والتفريغ فهو يفرغ الشيء... وكأنه يفرغ الحروف من معناها، أو يوقف عملها.

٥. تحمل معاني الكلمات تعاليم سماوية للإنسان.

٦. بعض الأحرف قد تقبل الدلالة على أكثر من معنى إلا أنه بعد معرفة معاني كل الأحرف المشكوك في معناها يصبح مؤكداً لا يقبل الشك أو التأويل.

- **محمود شاكر**: يتلخص منهجه في محاولة الربط بين الجرس الصوتي للحرف والمعاني التي يمكن أن يرمي إليه ذاك الجرس، يقول: «ونحن نريد أن نأخذ معاني هذه الأصوات التي تدل على حروف العربية من جهة طبيعة الإنسان حين يريد العبارة عن شيء في نفسهِ أحسَّ بهِ أو عزم عليه، محاكياً أو مقلداً أو منبهاً أو مصوِّراً أو مقرّباً للمعنى الذي يريده بالجرس الصوتى المفرَد الذي يتبادر إليهِ فيحاوله ويعالجُه ويتهجم عليه»[1].

ويلاحظ البحث هنا اختلاف منهجية الدارسين في الكشف عن معاني الحروف، وبيان دلالاتها، وإن كانوا قد اتفقوا في بعضها بوجه عام كالاعتماد على مخرج الحرف وصفته كما سيأتي بين ذلك، ويمكن إجمال مناقشة المنهجية في النقاط الآتية:

أولاً: يؤكد غير باحث صعوبة الوصول إلى تلك المعاني، ويعترفون بأن الطريق إليها شاق مضنٍ بحاجة إلى تأمل وتكرار نظر. يقول النيلي: «إنّه عملٌ معقّدٌ يصعب شرحه»[2]، ويقول حسن عباس: «إن استيحاء معاني الحروف العربية بالرجوع إلى خصائص أصواتها عن طريق الاستبطان، فيه الكثير من المشقة والمخاطرة. ولعل هذا السبب هو الذي جعل علماء اللغة يتجنبون هذه العملية الصوتية النفسية كمنهج

(١) جمهرة مقالات محمود شاكر، ج٢، / ٧١٧.
(٢) اللغة الموحدة، ص٥٣٤.

لهم، وإن كان لا مفر لهم من معاناتها، ولو في صور من رهافة السمع والتذوق الأدبي الرفيع»[1]، ويقول محمود شاكر مؤكدا الصعوبة والمشقة في الوصول إلى هذه المعاني: «ومعاني هذا الباب مما يقتضي القارئ فضل تدبر وصبر وتقليب وتثبت حتى ينفذ إلى حقيقته، ويستولى على ما يتعسر من أصوله، فإذا فعل فقد أدرك منهُ طرفاً صالحاً يستعين به على التوسع في معرفة حده وغرضِه ونتائجهِ»[2].

ثانياً: اعتمد الباحثون في الوصول إلى مخارج الحروف وصفاتها، فهيئة تكون الحرف في الجهاز الصوتي -عند هؤلاء- له دلالة على المعنى، وقد صرّح محمد حسن جبل وحسن عباس وعاصم المصري وإياد الحصني ومحمود شاكر بهذا المنطلق، واعتمدوه منهجاً في رحلة الكشف عن المعاني.

وهذه المنهجية التي اتخذها أولئك تثير عدة إشكالات وتساؤلات، فمن المعلوم أن بعض الحروف تشترك في المخارج، وكذلك في بعض الصفات، فما أثر هذا الاشتراك في المعنى؟

وهل لتقارب الحرفين مخرجاً وصفةً أثر في تقارب المعنيين؟

وقد قرر العلماء أنّ لهذا التقارب أثراً صوتياً كالإبدال والإدغام، وأكد ابن جني أنّ له كذلك أثراً في المعنى فالألفاظ المتقاربة لفظياً متقاربة معنوياً، نظّر لذلك في باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني.

وقد «كثر وقوع الإبدال بين الحاء والهاء لاشتراكهما في المخرج وفي الصفات ... مثل مدحه ومدهه، وسقط من السطح فتكدح، وتكده. وحبش له أشياء وهبش له أي جمع، ووقع الإدغام بين الحاء والهاء

(١) خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص٤٠.

(٢) مقالات محمود شاكر، ج٢/ ٧٠٨.

في نحو: لا تكره حسناً (تنطق لا تكرحسناً)»[1]، «ولقرب مخرج العين من مخرج الهمزة... ولاشتراك العين مع الهمزة في الجهر، وموازاة نصوع العين لصوت الهمزة المحققة في القوة، واشتراكهما في كثير من الصفات.. لكل ذلك كثر وقوع الإبدال بين العين والهمزة، يقال: آذيته على كذا وكذا، وأعديته: أي قويته، ويقال: كثأ اللبن وكثع إذا علا دسمه وخثورته على رأسه في الإناء»[2].

ولعل القارئ يعود إلى معاني الحروف في الأعلى لينظر في معاني تلك الحروف المذكورة للتمثيل، فما العلاقة المعنوية بين الهمزة والعين، وكذلك بين الحاء والعين وبينهما التقارب المذكور في المخارج والصفات؟

هل المقصود بكلامهم شيء آخر غير المخارج والصفات؟

إذا كان الجواب بنعم، فلماذا قدم كل من حسن عباس وعاصم المصري محمد شاكر الحديث عن مخارج الحروف؟ ثم ما ذكره أولئك الدارسون من معانٍ فخاصة بالعربية أم عامة في كل صوت، وفي كل لغة؟

فمما لا يُجهل أن بعض اللغات قد تتفق في أصوات معينة، وقد عقد ابن سينا فصلاً في كتابه الشهير أسباب حدوث الحروف فصلاً بعنوان: (في الحروف الشبيهة بهذه الحروف وليست في لغة العرب)[3] تحدث عن شبيه الحروف العربية في اللغات الأخرى!

بقي تساؤل أخير إذا كانوا يعتمدون هذه المنهجية المحددة المعروفة -طريقة لفظها ومخارجها وصفاتها- لماذا كل هذا الاختلاف في تحديد المعاني؟

(١) محمد حسن جبل، المختصر في أصوات اللغة العربية، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤٢٧هـ، ص٨٨.
(٢) السابق، ص٨٥.
(٣) تحقيق محمد حسن الطيان، يحيى مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ص٨٦.

لعل السبب اختلاف وجهات النظر، فكل باحث ينظر في الحرف من زاوية تعتمد على المخارج والصفات ولكن تختلف في التقاط الصفة المميزة، أو ما يوحيه الحرف، أو ما يحدثه من جرس، أو تكون ثمة مؤثرات أخرى تتغلب على هذا الأساس كالاستعمال وهو ما ستتحدث عنه في النقطة الآتية.

ثالثاً: من الطرائق التي استخدمها الباحثون في معاني الحروف النظر في الاستعمال اللغوي، فينظرون في الألفاظ التي تشتمل على الحرف المعني، ويتتبعون معانيه، من أجل استنباط معنى كل حرف، وهي طريقة شاقة ومحفوفة بالمخاطر، وقد صرح باستعمال هذه الطريقة -كما مر- عبدالله العلايلي، ومحمد حسن جبل وقدمها على الأساس الصوتي، وكذلك حسن عباس، وعاصم المصري، وإياد الحصني، ورجع النيلي ومحمود شاكر كذلك إلى بعض استعمالات الحروف المعجمية، وإليك الملاحظات التي سجلها الباحث بعد النظر في هذا الأساس وكيفية استعماله عند أولئك الباحثين:

١. يكتنف هذا الأساس صعوبة، فقد ورثنا اللغة وهي مكتملة تعبر عن أغراض متكلميها من خلال الجمل، وقد وجد العلماء صعوبة في تحديد معاني بعض الكلمات -ولذلك تعددت الدلالات الخاصة ببعض الألفاظ- فكيف بمحاولة الوصول إلى معاني الحروف!

٢. حتى يسلم هذا الأساس المنهجي فأصحابه بحاجة إلى شيئين: الاستقراء، وتفسير ما خالف، وقد حاولوا تفسير المخالف بتبني منطلق آخر، وهو أنّ لتجاور الحروف في الكلمة أثراً في المعنى، فقد يغيب معنى الحرف في كلمة بناء على ما جاوره، وقد يُغير معنى الحرف بسبب رتبته في الكلمة، وقد شبه محمد

حسن جبل هذه العملية بقوله: «وتقريباً لهذا الأمر فإني أشبه مسألة أثر الترتيب هذه بترتيب خلط المواد المكونة لشراب من عصير الليمون المُحَلَّى؛ فالمواد هي ماء وسكر وعصير ليمون: فإذا وضعنا عصير الليمون أولاً على الماء فإنه يختلط به، ثم إذا جئنا بالسكر ووضعناه على ذلك الخليط فإنه لن يذوب كله في خليط الماء والليمون، بل ربما لا يذوب منه إلا القليل، وبذا سيكون طعم الخليط قليل الحلاوة. أما إذا خلطنا السكر بالماء أولاً وقلّبناه حتى ذاب، ثم وضعنا عصير الليمون فإن عصير الليمون سيختلط بالماء المحلَّى اختلاطاً تامّاً، وبذا ترتفع درجة حلاوة المشروب المذكور. أي أن حصيلة خلط الماء بالسكر والليمون تغيرتْ بسبب ترتيب خلط المواد -أيُّها يُخلط قبل الآخر. فكذلك الأمر في تكوُّن تركيب لغوي من مادة ثلاثة أحرف مثلاً -أي أنه يتغير معناه بتغير أسبقية الحرف المعين في صياغة التركيب»[1].

٣. هذا المنطلق زاد الصورة عتمة، وأضاف عقدة جديدة لهذه الإشكالية، فكيف نصل إلى هذا التمييز، وكيف نفرق في الكلمة بين الحرف المؤثِّر والمؤثَّر فيه؟

٤. هنا طرح حسن عباس حلاًّ وهو تقسيم الحروف إلى حروف قوية تحافظ على معانيها، وأخرى ضعيفة لا تحافظ على معانيها، وثالثة بين بين، ولكن السؤال قائم كيف نصل إلى وصف هذا الحرف بالقوة، وكيف توصلنا إلى معناه، وعندنا ألفاظ كثيرة جداً تشتمل على الحرف المعني بالدراسة، وهي مختلفة دلالياً؟!

(١) المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، ج١، ص٤٢.

٥. تختلف المادة المدروسة عند الباحثين، فمحمد حسن جبل ينطلق من ألفاظ القرآن الكريم، وحسن عباس يقتصر على الألفاظ التي يُظن أنها من لغة العرب الأوائل، ويعتمد كل منهما على المعاني الحسية، يقول محمد حسن جبل: «وقد تحريت في كل مجموعة جئت بها على رأس التركيب أن تكون من الاستعمالات المادية الحسية التي ذكرتْها أوثق المعاجم العربية وبخاصة: لسان العرب وتاج العروس، وإنما اخترنا الاستعمالات الحسية خاصة؛ لأنها أوضح في معانيها وأبعد عن الهلامية، كما أنها أثبتُ وأوضحُ في استخلاص المعاني المبحثية منها. والعلماء الذين فسَّروا تلك الاستعمالات هم من الذين عاصروا عربَ عصر الاحتجاج في البادية، أو كانوا أقرب ما يكون إلى معاصرتهم وفهم معاني كلامهم وما يقصدون منه»[(١)]، ويقول حسن عباس: «ولقد اخترت من هذه الأفعال والأسماء، ما قدّرت أنه هو الألصق جذوراً بالأرومة الأم. كما اخترت من مختلف معاني المصدر الذي وقع عليه الخيار المعنى الحسي لقربه من أصالة اللفظة العربية وفطريتها، مبتعداً ما أمكنني عن المعاني المجازية وإن كانت هي الشائعة الاستعمال حاليا»[(٢)].

وذهب إلى هذا الاتجاه إياد الحصني، يقول: «إذن أسماء وصفات الأشياء المادية أو الحسية الموجودة ابتداء مع وجود الإنسان هي التي ستكون مادة للبحث فيها عن القواعد والأسس لدلالة اللفظ، وعلى أبعد تقدير فإن العصر الجاهلي أي قرنين تقريباً قبل الإسلام هو الزمن الذي يعتقد أن اللغة العربية الأصيلة كانت

(١) المعجم الاشتقاقي المؤصل، ج١/ ١٤.

(٢) خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص٤٤.

موجودة آنذاك»[1]. وهذا الاختيار يحتاج إلى تعليل، والقول بأنها أوضح وأثبت بحاجة إلى دليل، وكذلك القول بأنها الأصل، أو أنها لغة العرب الأصيلة، وكأن التعبير عن المعاني جاء بأخرة!

٦. إذن في اختيارهم للمادة المدروسة شيء من الاعتباط، يوضحه قول حسن عباس في النص السابق: «ما قدّرت أنه الألصق جذوراً بالأرومة الأم»، والغريب أنّ حسن عباس يذكر دلالة بعض الحروف على الأشياء المعنوية، كدلالة الضاد على مشاعر الشهامة والمروءة والشمم!

٧. تختلف درجة هذا الأساس عند الباحثين، فقد عدّه محمد حسن جبل الأساس المقدم على الأساس الصوتي، وجعله حسن عباس في مرحلة تالية لمرحلة الاستبطان، وقد عداه من طرائق الوصول إلى المعاني، أما النيلي وعاصم المصري فقد جعلاه دليلاً على صحة المعاني التي توصلا إليها، يقول عاصم المصري: «بعد أن ثبّتنا المدلول الأقرب للمعنى الحركي لكل حرف، أخذنا به إلى مختبر المقارعة مع بعض ما ورد في المعاجم وديوان العرب الشعري، ثم في محاكمة مع استخدام التنزيل القرآني»[2]، والغريب أنّهما يريان أنّ اللغة قد خُربت، يقول النيلي: «أمّا اللغة العربية فهي جزء من اللسان طاله التخريب والاعتباطية شأنه شأن اللغات الأخرى»[3]، ويقول عاصم المصري عند حديثه عن الرجوع إلى المعاجم: «ولأننا ندرك أنّ اللغة قد خُربت، إلى حد أصبح معه هذا التخريج حلقة من حلقات تخريب القيم والمفاهيم؛ لذلك

(١) معاني الأحرف العربية، ص١١.
(٢) الأبجدية ودلالاتها، ص٦٠٥.
(٣) اللغة الموحدة، ص٣١٦.

صار لزاماً تقصي سبب استعمال المفردة اللغوية، كي نصف وننصف نطق ومنطق لغتنا»[1].

٨. يصطدم هذا الأساس المنهجي مع واقع لغوي فيه دلالة ألفاظ على معنى واحد وهو الترادف، وفيه دلالة لفظ على معانٍ عدة وهو المشترك اللغوي، وفيه دلالة اللفظة على المعنى وضده، وهو التضاد، فالواقع اللغوي معقد، وكان على الباحثين مناقشة تلك الظواهر اللغوية، وكيف يمكن تجاوزها للوصول إلى معاني الحروف، وقد أنكر النيلي هذه الظواهر، فيرى أنّ من النتائج التي توصل إليه إبطال الترادف، وإبطال المشترك اللفظي[2]، وأما عبدالله العلايلي فقد انتقد من يرى أن الترادف دليل على ضعف اللغة، ويرى ضرورة استثمار الترادف في تنمية اللغة وفي الوضع الجديد الذي يدعو إليه، يقول: «يتخذ بعض من دارسي العربية اليوم الترادف علامة على قلق اللغة، وبعض آخر يتخذه أثراً من الاختلاف القَبَلي أو ما يشبه الرواسب المتبقية من جراء امتدادات طويلة. والحقيقة وإن كان في المذهب الأخير شيء من القوة والصدق ليس هو كل الحق... أما الرأي فليس إلا منكراً من القول وزوراً لا ريب في ذلك ولا شك ... كما أن تعليله بالاختلاف القبلي ليس مقبولاً على إطلاقه؛ لأن من المعقول أيضاً أن الاختلاف بينها لن يبلغ هذا المبلغ الكبير إلى حد أن يكون الترادف في رقم الأربع مئة أحياناً... والحقيقة فيه أنه عنوان على فراغ الأمة إلا من القول من وجه وعلى مرونة اللغة من وجه آخر... أصبح صفة ظاهرة من العربية حد التفرد.. وجب على الواضع الحديث ألّا يهمل هذه الناحية أبداً وفي اللغة كفاء وغناء»[3].

(١) الأبجدية ودلالاتها، ص١٣٣.

(٢) اللغة الموحدة، ص٥٧٧.

(٣) مقدمة لدراسة لغة العرب، ص٣٣٥وما بعدها.

والقول بالترادف هو القول الأشهر في التراث اللغوي، والقول الآخر وهو إنكار الترادف قال به بعض العلماء، ومناقشة هذه المسألة بتفصيلاتها ليست من مطالب هذا البحث، لكن المراد هو بيان صعوبة الوصول إلى معاني الحروف بواسطة هذا المنهجية «الاعتماد على الاستعمال اللغوي» في ظل وجود هذا الكم الكبير من الترادف والاشتراك اللفظي، والمجاز.

رابعاً: من الأسس المنهجية الخاصة التي اعتمدها عاصم المصري مسميات الحروف، ومنهجية جدلية التناقض، فـ«في مسمى الحرف معنى كامن فيه، يفصح عن علاقة جدلية بين حروفه، ويدل على توازن التناقض بينها، فحرف (د+ا+ل) مثلاً، جدل بين الاندفاع والاتصال، والوسط حرف المد الزمكاني، فعند عكس الترتيب المسمى إلى (ل+ا+د) أي: شديد الخصومة وقوم لدّ ولدّه خصمه فهو لادّ، وجدلياً أحدهما في الاتجاه عكس الآخر»[1]، ويقول: «تقوم منهجية بحثنا على استنطاق معاني مسميات الحروف من خلال جدلية الأضداد، فالحروف تجري في مسارات تقوم عليها الألفاظ ووجهة الحرف هي في حراك زمكاني بحكم جدلية توازن التناقض، ولكل حرف صفات مختلفة عن غيره تظهر في حركته وبناء معناه، وهو ما يحدد وجهة حركة اللفظة وتأليف الكلام»[2]، ثم يعود عاصم المصري ويربط جدل الحروف بجدل الكون، يقول: «الاحتكام إلى جدلية التناقض التي ننتهجها في هذا البحث يفترض قراءة جدل الحروف من خلال جدل الكون؛ بالتالي بات من الصائب إلقاء نظرة على جدول (مندليف) للعناصر الكيماوية»[3].

وهذا كلام غريب عن اللغة لا يؤيده الواقع اللغوي!

(١) الأبجدية ودلالاتها، ص٦١٧.
(٢) السابق، ص٦٥.
(٣) السابق، ص٦٦.

خامساً: ومثله في الغرابة طرائق النيلي في الكشف عن المعنى المكونة من رصد الحركة ورسمها والتمثيل عليها، وقبل ذلك طريقته في الكشف عن المعاني التي كرر الهروب عن الحديث عنها، ثم ذكر أنها تشبه اكتشاف اللغة الأولى، يقول: «وباختصارٍ كانت الطريقة مشابهةٌ وإلى حدٍّ بعيدٍ لاكتشاف اللغات القديمة. حيث تمَّ كشف حرفٍ واحدٍ وبالمقارنات المتعدّدة تمَّ كشف الحرف الثاني وبالضرب بثالثٍ مراتٍ كثيرةٍ جداً تمَّ تقدير أو تخمين ثالثٍ، ثمَّ أعيد تعديل تعريف معاني الثلاثة مراتٍ عديدةٍ وبالاستعانة بأشياءٍ كثيرةٍ لا مجال لذكرها»[1] أحال النيلي في اكتشافه للمعاني إلى طريقة اكتشاف اللغات القديمة، فكيف اكتُشفت تلك اللغة القديمة؟ وما الأشياء الكثيرة التي استعملها في الوصول إلى المعاني ولا مجال لذكرها؟!

هذه جملة من الملحوظات على منهجية الباحثين في الوصول إلى معاني الحروف، وطرائقهم في الكشف عنها.

قبل الختام: بين الفرضية والنظرية:

السؤال الذي نحاول إجابته في هذه الفقرة، أتُعد تلك الدراسات فرضيات أم نظريات أم علماً؟ قبل الإجابة ننظر في رأي أصحاب تلك الدراسات في المشاريع التي قدموها، وبماذا وصفوها؟

يرى العلايلي أنّ الأمر فيه شيء من الريبة،» فلم ندخر وسعا في تتبع المواد وتقدير المعاني، الأمر الذي أفضى بنا إلى اعتماد الجدول في كثير من الاطمئنان، وإن كنا لم نزل على ريبة من أنه كذلك كان بكل حروفه، ولكن لا يسعنا إلا اعتماده على ما هو بدون تمييز لتصحيح الوضع في المستقبل»[2].

(١) اللغة الموحدة، ص١٩٤.

(٢) مقدمة لدرس لغة العرب، ص٣١٧.

وأما عالم سبيط النيلي فإنه يري مشروعه الحل القصدي هو بديل لعلوم العربية، وعلوم اللغة في اللغات كلها المبنية على الاعتباط، يقول: «ولا أدَّعي أن هذا الكتاب -اللغة الموحدة- سيكون له الأثر البالغ بسرعةٍ تليق بما انطوى عليه من نسفٍ للباطل وتأسيسٍ للحقّ في مضمار اللغة، ولكني أجزم أن الحل القصدي للغة سيكون البديل للاعتباط اللغوي برمّته نحواً وصرفاً وبلاغه ونقداً وتفسيراً وفكراً وفقهاً وأصولاً وعلوماً أخرى متفرعةً عن هذا العلم.. في وقت لن يطول كثيراً.. لتشوِّق العالم بأسره الى حلٍّ قصديٍّ لمشكلة اللغة وكأنه يناغم حدسه الداخلي العميق -الذي قد لا يكون واعياً تماماً- إلى أن القصدية هي مفتاح الحل الميتافيزيقي، ومن ثم الحل الشامل للإنسان. لذلك أجزم بأن الوقت لن يكون طويلاً حتى تسمع بأذنيك أو تقرأ بعينيك أن كتاب (اللغة الموحدة) وكلاً من كتابي (النظام القرآني) و(الحلّ القصدي للغة) هي خير ما أنتجه الذهن البشري المجتهد لفهم سر اللغة عبر تاريخه الطويل. ولن يمرّ إلّا وقت أقصر حتى يعلم العالم بأسره أن (قفل الميتافيزيقيا) الصدئ لم يكن في الواقع قفلاً خارجياً بقدر ما هو قفلٌ صدئٌ داخل (الأنا) الإنساني»[1].

وقد وصف محمد حسن جبل طريقة استخلاصه للمعاني طريقة علمية يقول: «استخلصتُ المعاني اللغوية العامة للحروف الألفبائية العربية استخلاصاً علمياً»[2]

يدرك حسن عباس غرابة ما قدمه، وابتداعه تلك الأقوال، وربط الحروف بالحواس، يقول: « إن فطرية اللغة العربية، تقتضي أن تكون حروفها موزعة الخصائص والمعاني بين الحواس الخمس والمشاعر الإنسانية. فرضية لغوية ولا أغرب، قد اقتضاها المنطق الرياضي الصرف، ولا سابقة لها في علوم اللغة. فما من عالم لغة عربياً كان أم غير عربي على مدى التاريخ، قد خطرت هذه الظاهرة على باله فأشار إليها ولو بصورة عابرة، فكان سعيي الحثيث طوال أعوام عديدة للتثبت من صحتها

(١) اللغة الموحدة، ص١٨-١٩.

(٢) المعجم الاشتقاقي المؤصل، ج١/ ٢٥.

مغامرة حقيقية تتماسّ مع المستحيل»[1]، ولكن مع ذلك يراها فرضية صحيحة غير قابلة للشك، يقول: «وأخيراً تتحقق هذه الفرضية في هذه الدراسة على واقع المعاجم اللغوية بما لا يدع مجالاً لأي شك في صحتها تأييداً لفطرية اللغة العربية»[2].

وعاصم المصري يصف عمله بالتثبت من المعاني، فيقول في خاتمة كتابه: «بعد أن ثبتنا المدلول الأقرب للمعنى الحركي لكل حرف»[3].

ونجد اليقينية كذلك عند إياد الحصني: «بعض الأحرف قد تقبل الدلالة على أكثر من معنى إلا أنه بعد معرفة معاني كل الأحرف المشكوك في معناها يصبح مؤكداً لا يقبل الشك أو التأويل»[4].

وهذا محمود شاكر يطلق على معاني الحروف اسم العلم، يقول: «وأنا لا أدعي لنفسي درَك هذا الذي قدَّرت من «علم معاني أصوات الحروف»، ولا أني وصلت بالفكر فيه إلى حيث أُريد»[5].

وبعد فمن المعلوم في مناهج البحث أنّ النظرية هي إحدى الفرضيات التي طرحها الباحث قبل البحث، ومع السير في البحث، وتكرار النظر، وجمع الأدلة تحقق صوابها فترقّت من فرضية إلى نظرية، والفرضيات المطروحة بجانبها تأكد خطؤها، وأما العلم أو القانون فهو مكون من جملة من النظريات الصحيحة التي تقبلها أهل الاختصاص. ومما هو مقرر كذلك أنّ السبيل الصحيح لانتقال الفرضية إلى نظرية هو السبيل العلمي الذي «يسترشد بثلاثة: بوجوب اتفاق الفرض مع الحقائق الخاصة المقصود تفسيرها به، ووجوب عدم تعارضه مع شيء من الحقائق الأخرى غير المقصودة به، ووجوب انطباق نتائجه كلها على الواقع»[6].

(١) خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص٢٢٤.
(٢) السابق، ص٢٢٤.
(٣) الأبجدية ودلالاتها، ص٦٠٥.
(٤) معاني الأحرف العربية، ص١٧.
(٥) جمهرة مقالات محمود شاكر ج٢، ص ٧٠٩.
(٦) محمد أحمد الغمراوي، النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٧هـ، ص١٣٦.

وبناء عليه يكون لهذا السبيل مراحل أربعة:

- تمييز الظاهرة التي يراد تفسيرها وتحديدها، ثم الفرض، ويعني الإتيان بفرض يصح تفسير الظاهرة به، أو عدة فروض.، فاختبار الفرض بالمقابلة بينه وبين الحقائق العلمية الأخرى، ويمكن تعديل الفرض هي هذه المرحلة إن وجد بينها -أي الحقائق- وبينه تنافٍ، أو يرفض الفرض؛ لأن تنافيه مع حقائق علمية ثابتة دليل على بطلانه، ثم تأتي مرحلة التمحيص بالاستنباط من الفرض نتائج تفسر وقائع تلك الظاهرة وجزئياتها، فإن وجدت مطابقة للواقع كان ذلك مما يدعو إلى الاطمئنان بها، وإن أظهر البحث خلافاً بين الفرضية والواقع عُدل الفرض، أو رفض كما فُعل في المرحلة الثالثة[1].

فهل تلك الدراسات مرت بتلك المراحل، وفرضت نجاحها، وسلمت من التنافي مع الحقائق العلمية الأخرى، وأثبتت صحتها في تفسير الوقائع؟

بناءً على المناقشات السابقة، الجواب: لا.

(١) السابق ١٣٧ بتصرف.

الخاتمة:

وفيها نتائج البحث:

١- اختلف الباحثون في تحديد معاني الحروف اختلافاً كبيراً، وذلك يعود لاختلاف المنطلقات التي اعتمدوها، واختلاف طرائق الوصول إلى تلك المعاني، وغموضها، وأعني بالغموض صعوبة الاحتكام إليها كالاحتكام إلى ما يوحي إليه الصوت من معنى.

٢- اتفق أكثر الباحثين على علاقة تشكل الصوت وصفاته بالمعاني.

٣- أكد جل الباحثين ضرورة النظر في الاستعمال اللغوي، ولكن باختلاف بينهم، فبعضهم جعله من الطرائق المقدمة للوصول إلى المعنى، وبعضهم جعله دليلاً مؤكداً على صحة المعنى.

٤- يذهب الباحثون إلى أنّ الحرف قد يتأثر ويؤثر في الحرف المجاور له في الكلمة، فيتغير المعنى، أو يختفي تماماً، وهذا مما يصعب اكتشاف معنى الحرف.

٥- انطلق الباحثون -خلا النيلي ومحمد حسن جبل- من تصور للغة يتبنى القول بتطور اللغة من مراحل بدائية إلى أن وصلت إلى صورتها المعهودة.

٦- خلت الدراسات من النظر الشامل في التراث اللغوي، ومحاولة استنباط آراء العلماء في تلك القضية، ومناقشتها، ما عدا محاولات الاعتماد على أقوالٍ لابن جني وتوظيفها دون النظر في تراث ابن جني كلّه.

٧- تفرد حسن عباس بالحديث عن شخصيات الحروف: قوي الشخصية وضعيفها ومعدومها، نعم من الباحثين من تحدث عن قوة الحرف وضعفه كجبل، ولكن حسن وسم كل حرف بشخصية، وكذلك تفرد بتوزيع الحروف العربية على الحواس، كما تفرد عالم سبيط النيلي بمحاولة رسم حركة الصوت.

٨- وقع الباحثون في جملة من الإشكالات المنهجية، وأثارت دراساتهم بعض التساؤلات المعرفية فيما يتعلق بالمنطلقات كتصورهم لنشأة اللغة، وتطورها، وعلاقة طريقة نطق الحرف بالمعنى، والاعتماد على المعاني الحسية، وتعاملهم مع ما خالف المعاني وغيرها من القضايا.

٩- وبناءً على ما سبق فإنّ القول بأنّ للحروف العربية الأبجدية معاني فرضية يحتاج القائلون بها، والمتحمسون لها إلى البحث عن مزيد من الأدلة، ودرء تعارضها مع الحقائق العلمية، والوقائع اللغوية، وإحكام تفاصيلها أما بالصورة هذه فهي أقرب إلى الفرضية الخاطئة فضلاً أن تكون نظرية أو علماً!

المراجع :

- إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٧٦م.
- إياد الحصني، معاني الأحرف العربية، الطبعة الأولى ٢٠١٢م.
- حسن عباس، خصائص الحروف العربية ومعانيها، منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٨م.
- عاصم المصري، الأبجدية ودلالاتها: النظرية والتطبيق، دار كنعان، الطبعة الأولى ٢٠١٣م.
- عالم سبيط النيلي، اللغة الموحدة، نسخة إلكترونية.
- عبدالرحمن السيوطي، المزهر في علوم اللغة، تحقيق محمد أبو الفضل وآخرون، دار الجيل، بيروت.
- عبدالصبور شاهين، في التطور اللغوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
- عبدالله العلايلي، مقدمة لدرس لغة العرب، دار الجديد، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.
- عبدالمنعم السيد أحمد جدامي الداروني اللغوية، بين الأصول الأوروبية والتجليات العربية، كنوز المعرفة، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ.
- عثمان ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت.
  تحقيق: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى.
- علي الحسين (ابن سينا)، تحقيق محمد حسن الطيان، يحيى مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
- محمد أحمد الغمراوي، النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٧هـ.

- محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي لألفاظ القرآن الكريم، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

المختصر في أصوات اللغة العربية، مكتبة الآداب ، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤٢٧هـ.

- محمود شاكر، مقالات: علم معاني أصوات الحروف، جمهرة مقالات الأستاذ محمود شاكر، جمع عادل جمال، مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، ٢٠١٣، ج٢، ص٧٠٨-٧٣٤.

References:

- **Ibrahim Anis,** The Significance of Words, The Anglo Library, Cairo, 1976.
- **Iyad Al-Hosni,** The Meanings of the Arabic Letter, First Edition 2012 AD.
- **Hassan Abbas,** Characteristics of the Arabic letters and their meanings, Publications of the Arab Writers Union 1998 AD.
- **Asim Al-Masry,** The Alphabet and Its Significance: Theory and Practice, Canaan House, First Edition 2013 AD.
- **The World of Indigo Squid,** Standard Language, electronic version.
- **Abdul Rahman Al-Suyuti,** Al-Muzhar in Language Sciences, edited by Muhammad Abu Al-Fadl and others, Dar Al-Jeel, Beirut.
- **Abdul Sabour Shaheen,** In Linguistic Evolution, Foundation for the Message, Beirut, second edition, 1405 AH.
- **Abdullah Al-Alayli,** Introduction to the Arabic Language Study, Dar Al-Jadeed, Second Edition, 1997 AD.
- **Abdel Moneim Al-Sayed Ahmed Jadami,** Linguistic Darwinism, Between European Origins and Arab Manifestations, Treasures of Knowledge, First Edition, 1437 A.H.
- **Othman Ibn Jinni,** investigation by: Muhammad Ali al-Najjar, The World of Books, Beirut.
  Edited by: Hassan Hindawi, Dar Al-Qalam, Damascus, First Edition
- **Ali Al-Hussein (Ibn Sina),** edited by Muhammad Hassan Al-Tayyan, Yahya Mir Alam, Publications of the Arabic Language Academy in Damascus.
- **Muhammad Ahmad Al-Ghamrawi,** The Analytical Criticism of a Book on Pre-Islamic Literature, The Salafi Press, Cairo, 1347 A.H.

- **Muhammad Hassan Jabal,** The Elicative Dictionary of Expressions of the Noble Qur'an, Literature Library, Cairo, First Edition, 2010.
- **Al-Mukhtasar fi Sounds of the Arabic Language,** Literature Library, Cairo, fourth edition, 1427 AH.
- **Mahmoud Shaker,** Articles: The Science of the Meanings of the Sounds of the Letter, The Collection of Articles by Professor Mahmoud Shaker, Adel Jamal Collection, Al-Khanji Library, Third Edition, 2013, Part 2, pp. 708-734.